Journal of Alasmarya University
Volume 11, June 2009

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الحادي عشر، يونيو 2009

الزوايا السلامية بتونس

خلال الفترة الحسينية (1705م -1956م)

المؤسسة ورجالها

د. مراد الزبيدي*

مقدمة

لقد تزامنت وفاة الشيخ عبد السلام الأسمر سنة 981هـ/1574م مع بداية الانتصاب العثماني بتونس، الذي أنهى عهدا مريرا من الحماية الإسبانية على البلاد طيلة 39 سنة (من سنة 942هـ/1535م إلى 981هـ/1574م).

وقد سمح الانتصاب العثماني بأن تسترد الطرق الصوفية أنفاسها، فنشطت الزوايا من جديد وتنامي دورها في التأطير الروحي والاجتماعي وحتى الاقتصادي لمجتمع الإيالة التونسية. وقد لعبت زاويتان مهمتان دورا رياديا في استقبال واحتضان الجالية الموريسكية- الأندلسية المهاجرة من الأندلس على إثر قرار الطرد النهائي الصادر في شأنهم سنة 1609 من الملك الإسباني فيليب الثالث. وهاتان الزاويتان هما زاوية أبي الغيث القشاش وزاوية سيدي أحمد بن عروس التي عرفت طريقتها بالطريقة العروسية، وهي الطريقة التي كان الشيخ عبد السلام الأسمر ينتمي لها قبل أن يؤسس زاويته الخاصة بزليطن وتتبلور معالم طريقته الخاصة به، التي عرفت فيما بعد في القطر التونسي بالطريقة السلامية.

---

* جامعة الزيتونة، تونس.

ولا شك أن التجربة الصوفية التي عاشها الشيخ عبد السلام الأسمر في تونس، -ومن ذلك اختلاطه بكبار صوفيتها وسياحته في ربوعها وخلوته الشهيرة بجبل زغوان- قد جعلته شخصا غير غمر بالنسبة للتونسيين الذين سرعان ما اتبعوا طريقته بعد أن ذاع صيته واتضحت معالم مشروعه الديني والتربوي والاجتماعي الإصلاحي، فتأسست عدة زوايا للطريقة السلامية بمختلف ربوع البلاد، وقفنا على أهمية عددها من خلال الأبحاث المصدرية والميدانية التي قمنا بها، مما سمح لنا بإنجاز خارطة لتوزع الزوايا السلامية في القطر التونسي، والوقوف على أهمية الدور الذي لعبته هذه الطريقة في تأطير المجتمع. كما وقفنا أيضا على عامل آخر مهم يعزى إليه انتشار السلامية بتونس وهو: أهمية الحضور الطرابلسي في القطر على إثر موجات الهجرة الليبية إليه، وهي موجات سجلت خلال العهد العثماني، وخصوصا خلال القرن التاسع عشر، تفسر في جانب مهم منها بسياسة الظلم والتفقير التي مارسها الولاة القرامنليون على قطاعات مهمة من المجتمع الليبي وما أعقب ذلك من انتفاضات قمعت بشدة، مما اضطر الكثير من الليبيين إلى اختيار الوجهة التونسية نظرا لسياسة التسامح التي قوبلت بها تلك الهجرات من قبل حكام تونس، ونظرا أيضا إلى الظروف الاقتصادية والاجتماعية المشجعة على تلك الهجرات من ناحية أخرى، مما سمح للمهاجرين الليبيين بالاندماج بسرعة في النسيج البشري والعمراني للمجتمع التونسي والتأثير فيه إلى حد ما، انطلاقا من خصوصياتهم الثقافية المميزة حيث يعد تأسيس العديد من زوايا السلامية على امتداد الفترة التي تهمنا مظهرا من مظاهر ذلك الاندماج والتأثير.

وهكذا فقد تركت الطريقة السلامية -عقيدة صوفية وممارسة ثقافية واجتماعية- بصماتها على المشهد الثقافي التونسي خلال العهد العثماني بمرحلتيه الأولى والثانية (الدولة الحسينية: 1705-1956)، من ذلك التأثير على تشكل المجال الحضري، ونقصد بذلك التجمعات العمرانية الطرابلسية الجديدة التي تأسست في مختلف المدن والقرى التونسية بل وتأسيس قرى جديدة لم يكن لها وجود من ذي قبل، بقي بعضٌ منها قائما إلى اليوم؛ ومن ذلك أيضا تأسيس لون موسيقي جديد نابع من حلقات الذكر والسماع الخاصة بالطريقة السلامية، مما سيجعله فيما بعد من مميزات الطابع الموسيقي التونسي، ونقصد بذلك ما اصطلح على تسميته بـ(السلامية) التي لا زالت فرقها منتشرة إلى اليوم في مختلف ربوع البلاد التونسية -وإن أفرغت إلى حد ما من محتواها السلامي الصوفي- مما يؤكد أيضا حجم الحضور الثقافي والديني الأسمري في الربوع التونسية.

وتأسيسا على ما سبق، يمكن القول إن دراسة الطريقة السلامية في تونس وفق المقاربات المعاصرة لا زال في بداياته ينتظر مجهودات كبيرة لإنجازه لأنه يتوقف على مدى استعداد الباحثين للخوض فيه وتطوير مباحثه لكنه يحتاج أيضا وبالخصوص إلى التشجيعات التي يؤمن أطرافها بمدى جدوى وأهمية تلك الجهود العلمية التي تصب من جهة في اتجاه تقريب الشعبين التونسي والليبي إلى بعضه البعض انطلاقا من عناصر الوحدة العرقية والثقافية، والتي تهدف من جهة أخرى إلى إرساء أسس متينة لحوار الثقافات – في علاقتنا بالآخر – الأنا أو الآخر – الآخر من جهة أخرى.

لقد سعينا في هذا البحث الموجز إلى تناول أهمية حضور الطريقة السلامية بتونس في محاولة لتسليط الأضواء على المباحث ذات الصلة التي يمكن تطويرها مستقبلا إذا تهيأت الفرص لذلك، وقد اعتمدنا لإنجازه على جملة من المصادر التاريخية الفريدة التي وقعنا عليها مما له علاقة بموضوعنا، وهي مصادر بعضها لم ينشر بعد؛ كما اعتمدنا أيضا على نتائج بعض الأبحاث الميدانية التي قمنا بها في عدة مدن وقرى تونسية. وهكذا سيكون موضوع بحثنا على النحو التالي: «الزوايا السلامية بتونس خلال الفترة الحسينية (1705–1956): المؤسسة ورجالها».

وقد ارتأينا معالجة الموضوع وفق الخطة المنهجية التالية:

1. قراءة في ببليوغرافيا الطريقة السلامية بتونس.
2. ظروف ظهور وانتشار الطريقة السلامية بتونس.
3. قراءة في خارطة توزع الطريقة السلامية بتونس: الساحل التونسي مثالا.
4. خصائص الطريقة السلامية بتونس.

أولاً: قراءة في مراجع ومصادر تاريخ الطريقة السلامية بتونس

تعتبر دراسة الطريقة السلامية بتونس من الصعوبة بمكان، ويعود ذلك أساسا إلى قلة المصادر والمراجع المتعلقة بهذا الموضوع، فبرغم اطراد الدراسات المتصلة بالتصوف والطرق الصوفية في تونس خلال السنوات الأخيرة سواء على المستوى الأكاديمي أو خارج إطاره، فإن الباحث في قضية بدايات الطريقة السلامية وانتشارها بالبلاد التونسية يصطدم بندرة الأبحاث والمعلومات ذات الصلة، أما على مستوى النصوص المصدرية المرجعية التونسية فإنها تكاد تكون نادرة إن لم نقل إنها مفقودة تماما. لذلك تعد الوثائق الأرشيفية للحكومة التونسية –على تأخرها زمنيا– ثروة وثائقية لا غنى عنها ألبتة، بل

جـد ضـرورية للإحاطة بالموضوع والوقوف على أبعاده المختلفة. وسنحاول هنا القيام بعـرض اسـتوريوغرافي موجـز رأيـناه مفـيدا لتكوين ببليوغرافية مستقبلية حول الطريقة السلامية بتونس.

يعـد الشيخ محمد بن عثمان الحشايشي (1853-1912)[1] أول من تحدث عن الطـريقة السلامية بتونس وذلك في كتابه (الهدية أو الفوائد العلمية في العادات التونسية) الـذي حـرر سـنة 1322هـ/1904م، غـير أن ما كتبه عن هذه الطريقة لم يتجاوز بعض الأسطر ضمن الفصل الذي خصصه للحديث عن الطرق الصوفية بتونس، ومهره بـ« مقالة في ذكـر الطرق الموجودة بالعمالة التونسية وعوائدنا في ذلك وأعمال كل طريقة ». وقد اسـتعرض ضـمن تلـك الفقـرة القـصيرة كيفية ميعاد الطريقة بالزوايا السلامية بشكل لا يخلو من فائدة، خاتما حديثه بأن للطريقة المذكورة (زوايا بالحاضرة وأعمالها)[2]، وقد نـبه قـبل ذلـك مباشـرة في خاتمـة حديثه عن الطريقة العروسية أنه يعمل بزاويتها -أي زاويـة سـيدي بن عروس- « ميعاداً للشيخ سيدي عبد السلام الأسمر عشية يوم الخميس من كل أسبوع »[3]. وبرغم أن الشيخ محمد بن عثمان الحشايشي يعد -ولو نظريا- من مـشايخ الطـريقة الـسلامية بتونس كما سنرى لاحقا، فإنه لم يتبسط في الحديث عن هذه الطـريقة بالقـدر الـذي يـشفي غلـيل القارئ، ويفسر ذلك في نظرنا بالغاية التي ألف من أجلـها كـتابه، حـيث كان موجها أساسا لسلطات الحماية الفرنسية بتونس قصد تعريفها بعـادات وتقالـيد المجـتمع التونـسي حتـى يسهل عليها التعامل معه، حيث لا يخفى أن الـشيخ الحشايـشي كـان مـن المـساندين لـسلطات الحمايـة ومـن المتفانين في خدمتها والتعامل معها[4].

1- هو صاحب كتاب (الرحلة الصحراوية عبر أراضي طرابلس وبلاد التوارق)، الذي حققه المرحوم محمد المرزوقي ونشر سنة 1988 عن الدار التونسية للنشر؛ وكتاب (جلاء الكرب عن طرابلس الغرب أو النفحات المسكية في أخبار المملكة الطرابلسية) الذي حققه الأستاذ على مصطفى المصراتي، وصدر عن دار لبنان، سنة 1965.

2- الحشايشي (محمد بن عثمان)، الهدية أو الفوائد العلمية في العادات التونسية، تح الجيلاني بن الحاج يحيى، سيراس للنشر، تونس، 1994، ص 218.

3- الحشايشي (محمد بن عثمان)، ن.م، ص 217.

4- في هذا الإطار يأتي تأليفه لكتاب (الدرة النقية في النوايا الصادقة للحكومة الفرنسية) الذي طبع بمطبعة كوني بباريس سنة 1883.

وكان يجب أن ننتظر إلى حدود سنة 1906/1325حتى يظهر إلى الوجود بتونس كتاب (مواهب الرحيم في ترجمة مولانا عبد السليم بن سليم) للشيخ الفقيه القاضي محمد بن محمد مخلوف الشريف المنستيري (1280/1864-1360/1941) وهو تلخيص وتنقيح لكتاب (روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار) في مناقب سيدي عبد السلام الأسمر للشيخ كريم الدين بن ناصر البرموني (ت. 998هـ/1590م)، من أكابر الآخذين عن سيدي عبد السلام الأسمر[5]. يقول الشيخ مخلوف عن عمله في التأليف: « ثم شرعت في ترتيبه وتهذيبه مذيلا ذلك بما اقتطفته من غيره». وهو أول مؤلف له أثناء وجوده بقابس، طبع منه 2500 نسخة، وقد قرظه الشيخ علي الشنوفي المدرس بجامع الزيتونة، ويظهر أنه لاقى استحسانا كبيرا، فقد تخاطفه القراء وبيعت آخر نسخه بأثمان عالية، ووقعت الرغبة في إعادة طبعه لكن الموت فاجأ المؤلف قبل تنفيذ رغبته، وقد أعيد طبعه سنة 1386هـ/1966 في المطبعة اليوسفية في القاهرة على ذمة مكتبة النجاح بليبيا.

سنة 1348هـ/1925 تولت المكتبة العتيقة بتونس طبع (الوصية الكبرى) للشيخ سيدي عبد السلام الأسمر، وبذلك صارت في متناول القراء ومريدي الطريقة السلامية الذين بلغ عددهم بكامل البلاد التونسية 12.000 مريدا، حسب إحصاء شامل قامت به سلطات الحماية الفرنسية سنة 1925.

سنة 1350هـ/1932 ظهر أيضا للشيخ محمد مخلوف المنستيري كتاب ذائع الصيت في فن التراجم (شجرة النور الزكية في طبقات المالكية) الذي ترجم فيه لأعلام مذهب مالك إلى الزمان الذي أدركه وهو سنة 1344/1926. وقد تضمن الكتاب ترجمة لحفيدين من أحفاد الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر وهما: الشيخ أبي راوي بن محمد عرفة بن عمران بن عبد السلام الأسمر (1043هـ/1633م-1088هـ/1677م)[6]، والشيخ عبد السلام بن صالح بن عثمان بن عز الدين بن عبد الوهاب بن عبد السلام الأسمر التاجوري (1058هـ/164-49م - 139هـ/1726) مؤلف كتاب (فتح العليم في

5- وقد اعتمدنا في هذا البحث طبعة المكتبة الثقافية بيروت الممهورة بـ(كتاب تنقيح روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب سيدي عبد السلام الأسمر)، وهي في الواقع نسخة تجارية غير محققة وبدون تاريخ، لكنها الوحيدة المتوفرة حاليا بالأسواق التونسية.

6- مخلوف (محمد)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.، ص 306، ترجمة رقم 1185.

مناقب عبد السلام بن سليم)[7]. وتكمن أهمية هاتين الترجمتين برغم اقتضابهما الشديد فيما تضمنتهما من إشارات تاريخية لا تخلو من فائدة، ساعدتنا على فهم مسالك انتشار الطريقة السلامية بالقطر التونسي.

سنة 1384هـ/1965 صدرت عن مكتبة النجاح (ناشر) أولى الأعمال المرجعية في تاريخ التصوف بتونس وهو كتاب (الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي) لمؤلفه محمد البهلي النيال، وقد خصص فيه المؤلف مبحثا لأشهر الطرق الصوفية التي كانت قائمة بتونس فتصدى فيه للقادرية والتجانية والسنوسية والعيساوية والرحمانية والبكتاشية – القلندرية[8] والعلاوية، مهملا الحديث عن الطريقة السلامية التي كانت لا تقل شهرة عن غيرها في البلاد التونسية وهي ملاحظة لم نجد من وقف عليها. هذا برغم أن المؤلف قد ترجم باقتضاب شديد للشيخ عبد السلام الأسمر مباشرة بعد ترجمته لسيدي أحمد بن عروس[9] مع أنه أيضا لم يول اهتماما للطريقة العروسية الأم، وقد يفسر ذلك في نظرنا بندرة المصادر المتعلقة بالموضوع وعدم اطلاع المؤلف عليها.

سنة 1968 صدر عن الدار التونسية للنشر كتاب (الأغاني التونسية) للصادق الرزقي الذي حاول فيه صاحبه أن يجمع كل ضروب الفنون الموسيقية التونسية التي كانت رائجة في عصره وقد اقتصر فيه –فيما يتعلق بالطريقة السلامية– على معلومات عامة في صفحات قليلة لم تتجاوز الأربع دون أن يخوض في مسألة ظروف ظهور الطريقة السلامية في تونس وتاريخ نشأتها بالتحديد.

سنة 1991 صدر عن المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات (بيت الحكمة، قرطاج) أول بحث تونسي مستقل تخصصي تصدى للطريقة السلامية بتونس، وهو كتاب (الطريقة السلامية في تونس: أشعارها وألحانها)، وقد ذكر الباحث فتحي زغندة في مقدمة عمله الدواعي التي حفزته إلى اختيار هذا الموضوع، فأكد في مستهل

7- مخلوف (محمد)، شجرة النور، ص 318، ترجمة رقم 1243. علما أن الشيخ مخلوف لم يهتد إلى تاريخ وفاة المترجم له.

8- كانت هذه الطريقة منحصرة في فئة الجند الإنكشاري التوركي بإيالة تونس وقد انقرضت بانقراض هذا الجند منذ مائة عام من تأليف الحقيقة التاريخية كما ذكر النيال ذلك. انظر: النيال (محمد البهلي)، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، مكتبة النجاح، تونس، 1965، ص 340.

9- النيال (محمد البلي)، ن.م، ص 267 –277.

كلامه أن المدائح الصوفية، وخاصة المتعقلة بالطريقة السلامية، تحتل مكانا بارزا في التراث الغنائي التونسي وهي لا زالت تردد إلى اليوم بمناسبة الأعياد الدينية والاحتفالات العائلية وغيرها من المناسبات، وأن تراث الطريقة السلامية الذي تناوله بالدرس يتكون من أدعية وقصائد جلها باللهجة العامية التونسية، وأنه أمام قلة الاهتمام بالتراث الغنائي المرتبط بالتصوف رأى ضرورة تخصيص دراسة تعنى بالخصائص الفنية للمدائح المتصلة بالطريقة السلامية باعتبارها من أهم الطرق في تونس من حيث وفرة التراث الغنائي المتعلق بها وسعة انتشارها في البلاد التونسية. وقد تولى المؤلف التعريف بالطريقة السلامية وبمؤسسها، مخصصا فصلا للتعريف بأهم القوالب التي بنيت عليها الأشعار المتداولة في الطريقة السلامية بالاعتماد على المصطلحات المستعملة في تونس بالنسبة إلى الشعر الشعبي، هذا مع الإشارة إلى أن الباحث اختار عدم التوسع فيما يتعلق بظهور وانتشار السلامية في الربوع التونسية في عصرنا الحاضر تجنبا على حد قوله لما قد يقع فيه من أحكام ذاتية، بل اقتصر على الجانب التراثي الذي اشتهر بأدائه أبرز شيوخ هذه الطريقة معتمدا على الرواة والتسجيلات التي جمعها أو تلك المتوفرة بخزينة التسجيلات التابعة للمعهد العالي للموسيقى بتونس[10].

ومما تجدر الإشارة إليه تأكيد الباحث في الفصل الذي خصصه لظهور الطريقة السلامية بتونس على أنه لم يتعرض أي باحث أو مؤرخ آخر إلى ظروف ظهور الطريقة السلامية في تونس وتاريخ نشأتها بالتحديد مما يبرر التجاءه في بحثه -أمام غياب المصادر المكتوبة- إلى استجواب مشايخ الطريقة الذين ما زالوا على قيد الحياة[11]. وقد أفضى به البحث إلى تقرير أن ظهور السلامية في تونس يرجع إلى عهد المشير أحمد باشا باي الأول (1253هـ/1837- 1272هـ/1855م) وعلى وجه الدقة إلى حدود سنة 1850[12]. وما يمكن ملاحظته في خصوص هذا العمل الأكاديمي المرجعي حول الطريقة السلامية، أنه يندرج في إطار علوم الموسيقى eiLa Musicolog، ومن هذا المنظور فهو عمل بحثي تخصصي اهتم بجانب مهم من التراث الشعري والموسيقي للطريقة السلامية، إلا أنه يبقى محدودا من الناحية التأريخية البحتة لوقوع المؤلف في أخطاء منهجية أثرت سلبا على النتيجة التي توصل إليها في ما يتعلق بظهور وانتشار

10- زغندة (فتحي)، الطريقة السلامية في تونس أشعارها وألحانها، بيت الحكمة، قرطاج، 1991، ص 9-11.
11- زغندة (فتحي)، ن.م، ص 59-60.
12- زغندة (فتحي)، ن.م، ص 60.

الطريقة السلامية في البلاد التونسية، وهو ما سنحاول التصدي له وتصحيحه بالقدر الذي سمحت به لنا وسائل بحثنا. على أنه لا مندوحة من القول إن هذا العمل يبقى الوحيد في تونس الذي أفرد الطريقة السلامية بدراسة خاصة ومستقلة.

سنة 2000 قامت الباحثة نادية مفتاح بدراسة وتحقيق كتاب (فتح العليم في مناقب سيدي عبد السلام بن سليم) لمؤلفه عبد السلام التاجوري، وقد نوقش هذا العمل بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية تونس الأولى، لنيل شهادة الدراسات المعمقة في التاريخ. ويعد هذا العمل أول نص مصدري تراثي متعلق بالطريقة العروسية يناقش بالجامعة التونسية، كما لم يسبق قبله تحقيق أي أثر من آثار هذه الطريقة بتونس، سواء داخل الإطار الجامعي أو خارجه، مما يكسبه أهميته الخاصة. وقد اعتمدت الباحثة في التحقيق على ثلاث نسخ أولاها خاصة تحصلت عليها من بعض مريدي الطريقة السلامية بتونس، والباقية نسختا دار الكتب الوطنية رقم 550، تاريخ نسخها سنة 1278هـ/ 1862م، ورقم 21179، تاريخ نسخها 1319هـ/1901. وقد قدمت الباحثة النص المحقق بدراسة حضارية حول الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر والإطار السياسي والثقافي والاقتصادي الذي نشأت وترعرعت فيه الطريقة العروسية بالقطر الليبي مغفلة التطرق إلى مسألة انتشار الطريقة بالقطر التونسي الذي وجدت فيه نسخ النص المحقق، على أن النص في حد ذاته يعد مرجعا لا غنى عنه بالنسبة للباحثين في الطريقة العروسية، خصوصا أنه قدم بشكل علمي مشفوع بفهارس تسهل التعامل معه والاستفادة منه بحسب تنوع الأغراض من دراسته.

سنة 2003 ظهر على نفقة المؤلفين عادل بالكحلة ورمضان بن ريانة كتاب (طبلبة: التقليدية والحداثة في المجتمع العربي)، في خمسة أجزاء، وهي مونوغرافية في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، تصدى فيها المؤلفان في الجزء الرابع للجماعات الصوفية التي عرفت في البلدة، فأكدا أنه كانت بها زاوية وجماعة للطريقة العروسية نسبة إلى سيدي أحمد بن عروس وكذلك زاوية وجماعة للطريقة السلامية، وأمدنا بمعلومات قيمة حول هاتين الزاوتين وأتباعهما اعتمادا على وثائق الأرشيف الوطني والروايات الشفوية المحلية المتداولة، غير أنهما لم يتصديا لإشكالية معايير التفرقة بين كلا الطريقتين رغم ثبوت امتزاجهما ببعضها في البلاد التونسية حتى أن

الفصل بينهما يصير مفتعلا[13].

سنة 2005 ظهر للوجود عن مركز النشر الجامعي بتونس كتاب «مغرب المتصوفة (الانعكاسات السياسية والحراك الاجتماعي من القرن 10م إلى القرن 17م)» للباحث لطفي عيسى، وهو في الأصل أطروحة دكتوراه نوقشت بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس. وفي الفصل الثاني الذي خصصه لتصوف الزوايا ومشروع المركزة المخزنية وتحييز المجال، وضمن العنصر الثالث منه المتعلق بالضغوط الجبائية ورد فعل الزوايا، تعرض المؤلف إلى مثال الزاوية السلامية وقبيلة الفواتير وعلاقتهم بحكام طرابلس الذين توخوا تجاه تصوف الزوايا نفس سياسة إيالة تونس العثمانية أيام عثمان داي. وقد اعتمد الباحث في الصفحات الثلاثة التي خصصها للمثال الطرابلسي كتاب (فتح العليم في مناقب سيدي عبد السلام بن سليم) لمؤلفه عبد السلام التاجوري في نسخته المخطوطة الأصلية التي أمدته بها الباحثة نادية مفتاح سالفة الذكر[14].

سنة 2007 قام الأستاذ علي الصولي بتحقيق كل من (الوصية الكبرى) و(الوصية الصغرى) للشيخ سيدي عبد السلام الأسمر، وقد صدر العمل عن الدار المتوسطية للنشر بتونس في جزئين، الأول يتعلق بالوصية الكبرى والثاني بالوصية الصغرى، وأهم ما ميز العمل انفراد الجزء الثاني منه أولا بـ(آخر الوصية الصغرى) نسخ العربي بن الحاج محمد الشريف؛ ثانيا بـ(الجامع) مقارنة مع النص المتداول ضمن كتاب (تنقيح روضة الأزهار) للبرموني. فأما الجامع فقد ذيل به مخطوط آخر الوصية الصغرى واحتوى على جملة من المناقب التي تخص صاحب الوصية والولي سيدي أحمد بن عروس وكذلك مناقب بعض شيوخ ومريدي الشيخ الأسمر.

ثانياً: ظروف ظهور وانتشار الطريقة السلامية بتونس

يعتبر الأستاذ فتحي زغندة في بحثه حول (الطريقة السلامية في تونس: أشعارها وألحانها)، أول من حاول تتبع ظروف ظهور هذه الطريقة في تونس، لكن يبدو أن تخصصه كموسيقيٍ وباحث في علوم الموسيقى وبالتالي بُعده عن ميدان التأريخ قد

13- بالكحلة (عادل)، والهادي بن ريانة، طبلبة: التقليدية والحداثة في المجتمع العربي، ج 4، تونس، 2004، ص 70-76.

14- عيسى (لطفي)، مغرب المتصوفة (الانعكاسات السياسية والحراك الاجتماعي من القرن 10 إلى القرن 17م)، مركز النشر الجامعي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 2005، ص 577-579.

أوقعه في خطإ منهجي في البحث أثر سلبا على النتائج التي توصل إليها، واعتبارا لكون هـذا العمـل يعد الوحيد –على حد علمنا– الذي تضمن محاولة الإحاطة بظروف ظهور ونـشأة الطـريقة الـسلامية بتونس فسيكون منطلقا لبحثنا وفق رؤية نقدية تحاول الإضافة والتجاوز.

أكـد المؤلـف أولا: عـدم تعرض أي باحث أو مؤرخ إلى ظروف ظهور الطريقة الـسلامية بتونس وتاريخ نشأتها بالتحديد؛ ثانيا: غياب المصادر المكتوبة المتعلقة بطهور الطـريقة الـسلامية في تـونس. ممـا بـرر بـه التجاءه إلى المصادر المكملة والبديلة وهي المـصادر الـشفوية وفـق مـنهج الاستجواب والتوثيق، وقد انتهى إلى رسم تاريخ للطريقة السلامية في تونس انطلاقا أساسا من المصادر الشفوية التي اعتمد عليها.

ونحـن ولـئن كـنا نوافـق الأسـتاذ فتحـي زغندة فيما ذهب إليه من افتقار المكتبة التونـسية إلى بحـث سـابق مستفيض حول الطريقة السلامية في تونس، فإننا لا يمكن أن نشاطره الرأي في تقريره غياب المصادر المكتوبة المتعلقة بظهور هذه الطريقة في البلاد التونـسية حيث يظهر لنا أن مراجعة هذا الرأي باتت متأكدة، وقد استعرضنا في المبحث الـسابق جملـة النـصوص المـصدرية المـتعلقة بالطـريقة السلامية التي توفرت في البلاد التونـسية وخـصوصا كـتاب (مـواهب الرحيم) للشيخ مخلوف، (الوصية الكبرى) للشيخ عبد السلام الأسمر، (فتح العليم) للشيخ التاجوري، فضلا عن المصادر الأخرى التكميلية المـساعدة مـثل كتاب (شجرة النور الزكية) للشيخ مخلوف أيضا و(الرحلة الصحراوية) للـشيخ محمـد بـن عـثمان الحشايـشي. غـير أن الباحث تجاهل جل تلك المصادر ولم يحـاول الرجوع إليها والوقوف عندها واستقراءها بما يساعده في التأريخ لظهور وانتشار الطـريقة السلامية بتونس. وهو ما حاولنا تداركه في هذا المقام. وبالتالي فإن قوله بغياب المـصادر المكـتوبة يـصبح في غـير طريقه ويستحق النقض. ونحن وإن كنا نثمن لجوء الـباحث في دراسـته إلى مـنهج الاسـتجواب والتوثيق مما وفر لنا معطيات لا غنى عنها خـصوصا وأن المـستجوبين كانـوا مـن كـبار السن في الطريقة السلامية بتونس، فإننا لا يمكن بحال أن نتقبل بارتياح النتيجة التي توصل إليها والتي مفادها أن الطريقة السلامية قـد دخلـت الـبلاد التونـسية في حـدود سـنة 1850، لأن مـا قاده لهذا الاستنتاج هو عدم حـصول علمـه بـتلك المـصادر وهـذا غـير مبرر أو قلة الاهتمام بالبحث عنها والاطلاع علـيها رغـم شـهرتها وتوفـرها سـواء في بلادنا أو في البلدان المغاربية وفي القطر الليبي على وجه التحديد، أو تجاهله لأهميتها مما جعله يعرض عنها، وهذا يعد خللا منهجيا

أدى بـه إلى القفـز علـى مـرحلة مهمـة مـن مراحل البحث التاريخي وهي الانطلاق من النـصوص المصدرية واستجوابها سواء قبل أو تزامنا مع البحث الميداني، بما يمكن من إعـادة تـركيب لـوحة الفسيفـساء التاريخية المشتتة قطعها في مظان المصادر التي أشرنا إلـيها وفي صـدور الـرجال. لكن يبدو أن طبيعة التخصص العلمي للأستاذ فتحي زغندة هـو المـسؤول عـن هـذا الخلل في بحثه مما حدا بنا إلى إعادة تناول المسألة وفق رؤية تـراثية تحاول التأسيس للحقيقة التاريخية التي تبقى في نظرنا نسبية على الدوام وتحتاج إلى المراجعة والتطوير باستمرار.

استنتج الدكتور فتحي زغندة اعتمادا على الاستجوابات الميدانية التي قام بها والتي وثقهـا بتـسجيلها علـى شرائط كاسيت لمشايخ الطريقة السلامية الذين ما زالوا على قيد الحـياة واشـتهروا بالتـصاقهم بـشيوخ الـسلامية مـنذ الـصغر وإلمـامهم بتقالـيد الطـريقة وحفظهـم لجانـب هـام مـن تـراثها: أن ظهـور الطـريقة السلامية بتونس يرجع إلى عهد المـشير أحمـد باشـا بـاي الأول (1253هـ/1837م -1272هـ/1855م) وبالتحديد سنة 1850 عـندما قـدم إلى تـونس زائـرا شـيخ مـن قبيلة الفواتير المنسوب إليها سيدي عبد الـسلام الأسمـر، وقـد أقام هذا الشيخ بزاوية سيدي ناجي الكائنة بحي المركاض بمدينة تونس، وأثناء إقامته اعتنى بترديد بعض بحور السلامية ونشرها بين الناس قبل أن يرجع إلى طـرابلس. وبعـد حوالي 30 سنة وفي أيام علي باي الثالث (1882-1902) قدم إلى تـونس شـيخ ثـان، قـد يكـون ابـن عـم الأول وأقام بزاوية سيدي عمارة بحي الحلفاوين بالعاصـمة، فاتـصل بـه عدد من التونسيين بالزاوية المذكورة وأكرموه وأقبلوا على حفظ بحـور الطـريقة الـسلامية وتـرديدها. ثـم انتـشرت تلـك الـبحور بعـد ذلـك بسرعة بين التونـسيين في مـناخ ثقـافي تميـز بـشغف الأهالـي بأشـعار المـديح المـتعلقة بالأولـياء وبتشجيع السلطة للطرق الصوفية حتى أن الصادق باي كان ينظم حلقات الذكر والأمداح في قـصره. وقـد لعـب الـشيخ حمدة التركي الذي يعد أول من حفظ بحور السلامية عن الـشيخ الفيتوري في حدود سنة 1900 دورا رئيسيا في نشر بحور الطريقة السلامية حيث تـتلمذ عليـه عـدد مـن محـبي الطـريقة الذين أصبحوا فيما بعد شيوخا للسلامية وأثروا رصـيدها الغنائـي كالـشيخ محمـد بلحـسين وابنه محمود بلحسين وحميدة النابلي وابنه محمـد النابلـي وأخـيه عثمان ومحمد بن سليمان ومحمد غبارية ومحمد بن جعفر، أبو رشـيد الـذي أصـبح شـيخا للمالـوف، وعـثمان رابـح ومحمـد بن سالم وغيرهم، وهكذا انتشرت بحور السلامية بزوايا العاصمة -حسب ما توصل إليه الأستاذ فتحي زغندة- منذ

العشرية الأولى من القرن الماضي حيث كان الناس ينتقلون من زاوية إلى أخرى لمشاهدة أعمال الطريقة وحفظ بحورها التي انتشرت شيئا فشيئا في بقية المدن التونسية وخاصة منها الواقعة على الساحل الشرقي للبلاد سواء في مدن الوطن القبلي كنابل ودار شعبان الفهري وبني خيار وقربة أو باقي منطقة الساحل الأوسط[15].

هكذا رسم لنا الباحث نشأة وتطور وانتشار الطريقة السلامية بالبلاد التونسية. انطلاقا من سنة 1850، مما يخلف الانطباع بأن هذه الطريقة الصوفية حديثة العهد بتونس رغم أن النصوص المصدرية التي أشرنا إليها والتي لم يعتمد منها الباحث إلا كتاب (مواهب الرحيم) للشيخ مخلوف، تفند ذلك وتسمح لنا بتأكيد تاريخ سابق لانتشار هذه الطريقة في بلادنا وهي الطريقة التي نعتها نفس المؤلف في بحث لاحق صدر سنة 2000 بأنها: «من أعرق الطرق في تونس وأكثرها أتباعا وانتشارا»[16]، فكيف تكون كذلك ولم تدخل البلاد التونسية إلا منذ سنة 1850،مما يجعلها اعتمادا على هذا التاريخ من أحدث الطرق الصوفية دخولا وانتشاراً ببلادنا.

أ. معطيات النصوص المصدرية

تؤكد لنا المصادر التي بين أيدينا أن الطريقة السلامية قد دخلت البلاد التونسية في وقت مبكر وقريب جدا من زمن مؤسس الطريقة وذلك عن طريق كبار شيوخ هذه الطريقة أنفسهم سواء من الفواتير من أحفاد الشيخ عبد السلام الأسمر أو من أصحابه. وسنحاول بيان ذلك مع الترجمة لهؤلاء مما سيكون لدينا قائمة أولية في رواد الطريقة السلامية بتونس.

أولاً: تراجم المتقدمين من أصحاب الشيخ عبد السلام الأسمر

1. الشيخ عمر بن محمد بن حمودة الطرابلسي المعروف بابن حجا

ترجم له البرموني في (تنقيح روضة الأزهار) وحدد تاريخ ميلاده في سنة 902هـ/ 1496م، فقال: «الإمام القدوة، صاحب الكرامات الشهيرة والأحوال الزكية الأثيرة، خليفة سيدي عبد السلام، سيدي عمر بن محمد بن حمودة الطرابلسي مولدا ودارا المخزومي

15- زغندة (فتحي)، ن.م، ص 59-62.

16- زغندة (فتحي) الإنشاد في الطريقة السلامية: قراءة موسيقية، في مجلة الحياة الثقافية (تونس)، العدد 112، فيفري 2000، ص 79.

نسبا، المعروف بابن حجا. كان عالما زاهدا عارفا بالله ... تولى تربيتنا بعد موت الشيخ والقيام بشؤوننا، فأحسن في ذلك واجتهد في تعليمنا العلم، وأقرأنا الوظائف الزروقية والعقائد السنوسية والأحزاب العروسية. وكان يحفظ حِكَم ابن عطاء ويفهم معانيها، ويحرضنا على التمسك بأذيال العروسيين والدخول في زمرتهم واقتفاء آثارهم، ويرغبنا في طريقة الشيخ سيدي عبد السلام. وكان سيدي عبد السلام يحبه ويدعو له مدة حياته ولا يرد له كلاما، وأمره بالتلقين مدة حياته فلقن، وتبعه خلق كثير في حياة الشيخ وبعد وفاته. وكان كثير العبادة، وقد عاشرته فما رأيته مضطجا على جنبه، وإذا غلبه النوم وضع رأسه على ركبتيه. وهو أول من أخذ عن الشيخ وسقاه بنظرة واحدة فوصله بها، ومن ذلك الوقت تبع الشيخ فحفظ القرآن ثم قرأ النحو والفقه والتوحيد والتصوف إلى أن بلغ القطبانية. وكان أمارا بالمعروف نهاء عن المنكر يراعي الظاهر دون الباطن »[17]. وقال في موضع آخر: « كان سيدي عبد السلام يقول مريدي أحمد لا يشاكله أحد من فقراء العصر إلا عمر بن حجا »[18]. وذكره الشيخ عبد السلام التاجوري في (فتح العليم) فقال: « سيدي عمر بن حجا والد سيدي محمد، وهو أخذ عن الشيخ عبد السلام. كان آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم. وكان يغلظ على أولاد الشيخ القول بالوعظ وغيره ويسمعهم ما لا يسمعهم غيره ... وسمعت سيدي أبا راوي يقول إنه يتقوت بالذكر خاصة لأيام عديدة، وكان أيضا من الطيارين، ورآه سيدي محمد وأخبر بعض الناس بذلك وأراه ببر تونس الجبلين اللذين طار من أحدهما إلى لآخر وهو ينظر »[19].

وقد وأوصى سيدي عبد السلام لما أحس بقرب أجله أن يغسله سالم بن طاهر وأن يصب عليه الماء عمر بن حجا، وأن يكون الإمام في الصلاة عليه سالم بن طاهر، وقال: « تركت لكم عمر ابن حجا فهو الخليفة فيكم بعدي وسيكون له مقام عظيم، وهو باب من أبواب الله سبحانه، فقال له بعضنا: حتى أولاد صلبك من تحت خلافته؟ قال:

17- مخلوف (محمد)، مواهب الرحيم في مناقب مولانا الشيخ سيدي عبد السلام ابن سليم، ص 248.

18- المصدر نفسه، ص256.

19- التاجوري (عبد السلام)، فتح العليم في مناقب عبد السلام بن سليم، دراسة وتحقيق نادية مفتاح، شهادة الدراسات المعمقة في التاريخ، مرقونة وموضوعة بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس الأولى، 2002، ص 312.

نعم، إلا عمران فإني قدمته على إخوته وعلى الزاوية»[20] ويضيف الخبر أن الشيخ عبد السلام جمع أولاده بعد ذلك بين يديه ثم جعل يد الشيخ عمر حجا فوق يد ابنه عمران وقال: «يا عمر أنت الأمير وعمران الوزير، فكره ذلك سيدي عمران وسل يده، فقال له الشيخ: إن لم تردها يا عمران لا تنالوا مني شيئا لا في الدنيا ولا في الآخرة، ثم خلا بسيدي عمر وأوصاه بأشياء كثيرة بما خصه الله به من البركات»[21].

ويفيدنا البرموني أن للشيخ تأليفين كبيرين في مناقب شيخه سيدي عبد السلام الأسمر ضاعا يوم قتل ابنه عمران، وأنه خلف ابنا اسمه محمد. كما قدم لنا البرموني معلومة هامة كشفت لنا ملامح أخريات حياة الشيخ عمر بن حجا فيقول: «وتولى الخلافة بعد الشيخ إلى أن رحل إلى تونس ومات بها» محددا تاريخ وفاته بسنة 999هـ/ 1590-91م[22]. وهي معلومة تنسجم مع ما رواه ابنه محمد عن تواجده ببر تونس وما ظهر عليه بها من كرامة الطيران بين الجبلين. وهي معلومة أكدها الشيخ محمد مخلوف المنستيري في (مواهب الرحيم) عندما ذكر أن قبر الشيخ عمر بن حجا «معروف يزار متبرك به بموضع قريب من قرية تعرف بالداموس من حيز عمل المنستير»[23].

ورغم صمت مصادرنا حول الأسباب التي دعت سيدي عمر حجا إلى الهجرة إلى القطر التونسي والاستقرار على وجه التحديد بقرية الداموس التونسية، إلا أنه يمكن أن نرجح أن ذلك مرتبط بثورة يحيى بن يحيى السويدي (الذي يعرفه ابن غلبون بأنه رجل علم وورع قدم من المغرب) التي اندلعت بين سنتي 1588 و1590 بتاجوراء في عهد مصطفى باشا (1584-1588) وحسين باشا (1588-1595) على إثر المذبحة التي قام بها الأتراك استهدفت مجموعة من الحجاج، وضد السياسة الجائرة لهؤلاء الحكام بصفة عامة، وقد شملت مسلاتة وزليتن وضواحيها وقتل فيها نحو ألف شخص من بينهم عمران ابن الشيخ عبد السلام الأسمر. وخلال هذه الأحداث حوصرت مدينة طرابلس وتكبد الأتراك خسائر هامة قبل أن يتم القضاء على هذه الثورة سنة 1590. وقد أشار عبد السلام التاجوري مؤلف فتح الرحيم إلى هذه الثورة بصفة غير مباشرة في كتابه عندما ذكر تنبؤ الشيخ الأسمر بمقتل ابنه عمران على يد مغاربة وما تبعه من حرق

20- مخلوف (محمد)، مواهب الرحيم، ص 226-227.

21- المصدر نفسه، ص 227.

22- المصدر نفسه، ص 248.

23- المصدر نفسه، ص 248.

ونهب للزاوية. أما ما قام به الثائر يحيى من قتل ابن الشيخ ونهب زاويته فيتنزل في إطار قراره القضاء على المدعين الانتساب إلى آل البيت من الأولياء. والمتتبع لكتاب (فتح العليم) يتحسس عند دراسته للكتب القطيعة التي أحدثت في صفوف أتباع الشيخ ومريديه وخاصة المنحدرين من نسله ومن عشيرته الفواتير، حيث نلاحظ عدم التزام بعهم بالطريقة التي سطرها الشيخ لهم وضبط قواعدها في وصيتيه الكبرى والصغرى، وهو سلوك أصبح يتدعم شيئا فشيئا مع مرور الزمن ويلاحظ من خلال تصرفات بعض الفواتير أو بعض المريدين[24]. مما قد يفسر قرار الهجرة الذي اتخذه الشيخ عمر بن حجا والذي صمتت عن تفسيره المصادر المنقبية، وهذا مفهوم إذا اعتبرنا الهدف التمجيدي لشخصيات هذا النمط من التآليف. ولئن كنا لا نعلم إن كانت هجرة الشيخ عمر بن حجا فردية أم جماعية، على أننا نلم أن قرية الداموس ستصير بعد استقراره بها القرية الطرابلسية في الساحل التونسي سواء من ناحية تركيباتها العرقية الطرابلسية أو من ناحية تخطيطها الهندسي وشكل معمارها ومواد بنائها المتميزة[25]. كما تبقى بالنسبة لنا شاهدا على الهجرة المبكر لليبيين إلى الأراضي التونسية، وذلك قبل موجات الهجرة اللاحقة التي ستحدث خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي.

2. الشيخ أحمد بن مدين السقفي

هو أحمد بن مدين بن شعيب بن جابر بن شعيب السقفي. حلاه البرموني بـ(الفقيه الإمام الصالح الولي الشيخ)[26] وذكر أنه « كان من أجل أصحاب الشيخ، زاهدا عابدا متواضعا، يحب الفقراء ويكرمهم. وكان صائم الدهر متورعا. وقد طالت معاشرته بالشيخ إلى أن انتهى في التربية »[27]. ثم يضيف البرموني أن الشيخ عبد السلام الأسمر بعث المترجم له إلى دحمان وأمره بالإقامة بها وكاشفه بأنها ستكون دار مقامه وقبره. وبالفعل أقام الشيخ أحد السقفي بهذا الموضع إلى أن توفي عن سن 114 عاما. ونسب له البرموني كرامات منها نزول الموائد من السماء والإتيان بالأسرى. ومما تجدر الإشارة إليه حسب ما ورد في (فتح العليم) أن جد المترجم له هو الولي شعيب المشهور

24- التاجوري (عبد السلام)، فتح العليم، ص 12-13 (الدراسة).
25- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 362-363.
26- مخلوف (محمد)، مواهب الرحيم، ص 249.
27- المصدر نفسه، ص 249.

بـ(الـزين) المقـبور بجـندوبة مـن عمل تونس، أما جد جده سيدي شعيب أيضا فمقبور بأجم قرية من عمل الساحل التونسي. غير أن المعلومات الواردة حوله لا توضح عما إذا كـان سـيدي أحمـد الـسقفي تونـسي الأصـل أم طرابلـسياً وإن كـنا نـرجح الثانية لكون طرابلسيي زوارة كانوا يشكلون إحدى أهم المجموعات العرقية لقرية الجم التونسية التي قـد تكـون مـن بينها عائلة هذا الشيخ، لذلك لا نستبعد بالمرة أن يكون المترجم له على صلة دائمة بعائلته بالقطر التونسي أو لعله كان يزورهم في بعض الأحيان. ولما كان من أصـحاب الـشيخ سيدي عبد السلام الأسمر ومن شيوخ التربية في طريقته فإنه يمكن أن نـتوقع لـه القيام بدور مهم في نشر مبادئ وأصول الطريقة السلامية بالبلاد التونسية سواء في الساحل التونسي أو منطقة الشمال الغربي.

ثانياً: تراجم لاحقة لبعض مشايخ الطريقة السلامية

1. الشيخ محمد بن عمر بن حجا

هـو ابن الشيخ عمر بن حجا المتقدم. وسمه التاجوري بـ(الشيخ العارف بالله شيخ وقـته وقـدوة زمانـه) مفيدا أنه أخذ عن أبيه وأن الشيخ عبد السلام الأسمر كلمه من القبر وأذن له في التلقين ففتح الله به وظهرت بركته، وذكر أنه توفي سنة 1071هـ/1660-61م ودفـن بعقـاره في لقاطـة مـن ساحل حامد من عمل طرابلس الغرب، وأن روضته هناك تـزار ويتـبرك بهـا[28]. ووسمه البرموني بـ(القطب الغوث الشيخ سيدي محمد ابن الشيخ سـيدي عمـر بن حجا، خليفة مولانا عبد السلام) وقد استفاض في ذكر مناقبه مؤكدا أنه «بلـغ الغـواثة كأبـيه»[29]. وهكـذا ويمكن أن نستنتج من خبر كرامة الطيران التي رواها الـشيخ محمـد عـن أبيه عمر بن حجا أن المترجم له قد رافق والده في انتقاله إلى عمالة تـونس وربمـا يكـون قـد أقـام معه زمنا قبل عودته إلى القطر الليبي حيث سيتوفى، ولا يـستبعد أن يكـون قد لعب دورا ما في نشر أصول الطريقة العروسية بالأماكن التي حل بهـا، وفي الـناس الـذين اتصل، بهم أو خلال مكوثه مع والده بها، أو خلال رحلة عودته إلى الـبلاد الطرابلـسية. وربمـا تكـون عـودته إلى بلاده قد كانت على إثر وفاة والده سنة 999هـ/1590-91م، ورغم أن النصوص المصدرية لا تفيدنا بتاريخ ميلاده فإننا نفترض أنـه كـان شـابا يافعا عندما توفي والده، فإن كان قد عمر مثله كثيرا فلا يستبعد أن يكون

28- التاجوري (عبد السلام)، فتح العليم، ص 306.

29- مخلوف (محمد)،مواهب الرحيم، ص 68، 260.

في العشرينات أو ربما في الثلاثينات من عمره وهي سن يكون فيها قد بلغ قدرا من العلم والنضج الصوفي يسمح له بنشر الطريقة العروسية لا سيما أنه تربى على يد أبيه خليفة الشيخ عبد السلام الأسمر وغيره من كبار مريدي الشيخ.

2. الشيخ منصور بن كحيل الأمي[30]

هو من مريدي الشيخ عبد السلام الأسمر. ذكره التاجوري على النحو التالي: «الشيخ المجذوب سيدي منصور بن كحيل الأمي» و«الشيخ المكاشف». هو من فقراء الشيخ كما يذكر التاجوري، إلا أنه لم يدركه لقوله: «لم يجتمع بالشيخ عبد السلام في الظاهر»[31]. وذكر أنه تربى صغيرا في جوار الشيخ أبي فارس أصغر أولاد الشيخ عبد السلام الأسمر، وتزوج من بناته وصار من أتباعه. كان يعظم الشيخ أبا راوي حفيد سيدي عبد السلام وكذلك سيدي محمد بن حجا. ورغم أنه لم يدرك الشيخ الأسمر فقد كان يصفه لمن لا يعرفه، ويصف صفة حضوره بديوان الأولياء[32].

جاء في (الإشارات) للتاجوري أن المترجم له أخذ عن الشيخ عيسى الدنيدني[33]، وقد أكد المؤلف ذلك في (فتح العليم) حيث نجد ما يفيد أن ابن كحيل قد زار البلاد التونسية واجتمع في جزيرة جربة بالولي الصالح بسيدي عيسى الدنيدني و(سقاه) -على حد عبارة التاجوري- الذي روى الخبر كاملا ومفاده الشيخ الدنيدني أراد زيارة المشرق فاستشار أستاذه، فأذن له بذلك إلا أنه أوصاه عدة وصايا من بينها: «وإذا وصلت جربة فإنك تجد بها مجذوبا صغيرا من أهل طريقته [أي طريقة الشيخ عبد السلام الأسمر]، فالله الله فيه، وإلا يضرك [يعني الشيخ]»، ولما وصل الدنيدني إلى جربة، وجد بها منصور بن كحيل، فقال لمن معه: «هذا الذي أوصاني عليه شيخي»، وناداه وضمه إليه وما زال معه حتى رحل[34]. وقد توفي الشيخ منصور بن كحيل سنة 1082هـ/1671-72. ودفن بمقبرة الفواتير أولاد سليمان[35].

30- تحدث عنه التاجوري في صفحات. انظر التاجوري (عبد السلام)، فتح العليم، ص 334-342.

31- المصدر نفسه، ص 101.

32- المصدر نفسه، 101، 320.

33- المصدر نفسه، 102-103.

34- المصدر نفسه، ص 102-103.

35- المصدر نفسه، ص 342.

لا نعلم سبب تواجد الشيخ بن كحيل بجزيرة جربة، لكننا متأكدون من خلال ما سبق التقاطه من إشارات أنه كان حينذاك شابا. فلا شك أن مدة إقامته بجربه وما عاشه فيها من أحداث، لعل من أهمها لقاءه بالشيخ الدنيدني ومن كان معه أثناء مروره بجربة في طريقه للمشرق، قد أسهم بشكل أو بآخر في التعريف بالطريقة السلامية وانتشارها بالجنوب التونسي.

3. سيدي علي الغزالي الفيتوري

لم يفدنا التاجوري في (فتح العليم) بتاريخ ولادة أو وفاة هذا الرجل لكنه ذكره من بين أتباع الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر، فقال: «ومنهم سيدي علي الغزالي الفيتوري، رجل مجذوب يذكرون له كرامات فيها وقه له أنه مسافر لقابس»، وذكر المؤلف إحدى تلك الكرامات التي تشيد بهذا الولي وتعكس السمعة الكبيرة التي كان يتمتع بها الشيخ عبد السلام الأسمر لدى سكان الجنوب التونسي[36]. المذكرة 345-346. وهنا لا نستبعد أيضا أن تكون زيارة هذا الشيخ لمنطقة الجنوب التونسي قد أسهمت بشكل أو بآخر في نشر الطريقة السلامية بالبلاد التونسية. خصوصا أن هذا الزائر من مريدي الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر.

4. الشيخ أبو راوي بن محمد عرفة الشهير بالدوفاني بن عمران بن عبد السلام بن سليم

ترجم له تلميذه الشيخ سيدي عبد السلام التاجوري المشتهر بالعالم صاحب (فتح العليم) وذلك في نحو الثلاثة كراريس، واسما إياه بـ (قطب الواصلين المربي العارف بالله إمام السالكين) وقد عكست العبارات التي استعملها التاجوري في حق شيخه مدى الاحترام والإجلال اللذين كان يكنهما له، حيث قال: «شيخنا وبركتنا وقرة أعيننا، الشيخ العالم الصالح المربي المجذوب السالك العارف بالله المعروف بصاحب المحاسن الحميدة والفضائل العديدة، من جمع بين الحقيقة والشريعة ... سيدنا ومولانا وحضننا حيا وميتا سيدي أبي راوي بن سيدي محمد عرف بالدوفاني بن سيدي عمران بن الشيخ سيدي عبد السلام، الذي بسببه أجريت في هذه الأوراق الأقلام»[37]. كما ترجم له محمد

36- التاجوري (عبد السلام)، فتح العليم، ص 345-346.

37- المصدر نفسه، ص 251. بمقارنة تواريخ ميلاد ووفاة كل من الشيخين عبد السلام التاجوري وشيخه أبي راوي (الأول ولد سنة 1058هـ/1648م، والثاني توفي سنة 1088هـ/1677م) يتضح أن سن التاجوري لما توفي شيخة كان حوالي 30 سنة. ولما كان كتاب فتح العليم مؤرخا في سنة 1101هـ/ =

مخلـوف في (شـجرة الـنور الـزكية) ووسمـه بـ« العلامة الميقاتي الفاضل القدوة العامل الصوفي المربي الواصل »، وأورد خبر زيارته لجربة[38].

ولـد الـشيخ أبو راوي سنة 1043هـ/1633-34م. وصحب الشيخ محمد بن عمر بن حجـا[39]، وأخـذ عنه سنة 1066هـ/1655-56 على ظن التاجوري. يقول البرموني: « أخذ الشيخ أبي راوي السلسلة الذهبية المنسوبة للشيخ الأسمر عن القطب محمد وهو عن القطب سيدي عمر حجا وهو عن القطب الغوث سيدي عبد السلام بن سليم »[40]. كما أخذ النحو والفـرائض والحـساب علـى سيدي أحمد بن عيسى، وقرأ الفرائض على سيدي عبد الله بن عتـيق الغريانـي، والتوحـيد والميقات وسر الحرف والجداول والتصوف عن علماء المغاربة الذين كانوا يمرون بطرابلس، أشهرهم محمد بن ناصر. وقد غلب على سيدي أبي راوي في العلـوم: التـصوف والتوحـيد والمـيقات. ألـف رسـائل مختـصرة مفـيدة في علـم الحـساب و(رسـالة في الـربع المجـيب) وتألـيف جامع في المخمس خالي الوسط بشرح مطول. أما عـن نشاطه في التدريس والتربية فقد ذكر التاجوري في كتابه أنه « لم يكثر الإقراء في العلوم الظاهـرة لاشـتغاله بالذكـر والزيارة وتربية المريدين »، حضر عنه التاجوري درسه في إقراء الحكم لابن عطاء الله، والصغرى للسنوسي، والميقات، وقد استفاد منه كثيرا[41].

تـوفي صـاحب الترجمـة ليلة الاثنين 29 ذي الحجة سنة 1088هـ/فيفري 1677 بسبب الطاعون مسافرا لزيارة سيدي علي الفرجاني وأصحابه، ودفن بجزيرة جربة قرب جامع القصارين قريب من جامع الغرباء في مقبرة للشهداء بإزاء قبر شريف صالح[42].

=

1689م، أي بعد حوالي 13 سنة من وفاة الشيخ أبي راوي، فهذا يعني أن التاجوري ألف كتابه بعد وفاة شيخه، وكان القصد منه بالأساس تدوين وتخليد مناقب شيخه أبي راوي، وهو القصد من عبارته: « الذي بسببه أجريت في هذه الأوراق الأقلام ».

38- مخلوف (محمد)، شجرة النور الزكية، ص 306، ترجمة رقم 1185.

39- مخلوف (محمد)، مواهب الرحيم، ص 260.

40- المصدر نفسه، ص 68.

41- التاجوري (عبد السلام)، فتح العليم، ص 371.

42- المصدر نفسه، ص302. ولا زال ضريحه قائما إلى اليوم ضمن مركب دين حضري ساحلي به مسجد مالكي كائن بالقرب من مقبرة بين وسط حومة السوق والبرج الكبير، وهو مستعمل كمقر لبعض الجمعيات. انظر وصفه الأثري وتاريخه في: مرابط (رياض)، مدونة مساجد جربة، المعهد الوطني للتراث، تونس، 2002، ص 9-36.

تـوفي سيدي أبي راوي إذن وهو بعد شاب لم يتجاوز الـ43 سنة، ويؤكد ما كتبه عنه تلميذه التاجوري في (فتح العليم) أنه كان من أهم شيوخ التربية في الطريقة السلامية إن لم يكـن أولهـم، وقـد تـتلمذ عليه جلة من أعلام الطريقة منهم الشيخ علي الفرجاني الـذي يعتـبر وارثهـا من بعده. ونحن ولئن لم نتحقق من زيارات الشيخ أبي راوي للقطر التونـسي إلا تلـك الأخـيرة التي توفي فيها به، لكننا لا نتصور أنها الزيارة الوحيدة وربما سبقتها زيارات خصوصاً وأنه ينسب له أنه هو الذي نصب محراب مسجد مدرسة سيدي إبـراهيم الجمـني (1036هـ/1628م - 1134هـ/1721م) التي تم بناؤها سنة 1086هـ/ 1675م[43]، فمـن الطبيعـي أن يكون الشيخ قد بذل وسعه خلال تلك الزيارات في تربية مريدي الطريقة السلامية خصوصا في منطقة الأعراض موطن أشهر تلاميذه سيدي علي الفرجاني، ويتأكد ذلك إذا علمنا أن الشيخ لم يكن يرى إلا وهو ذاكر متعبد لله.

5. الشيخ علي الفرجاني وشقيقه سيدي المبروك

رحل الشيخ علي الفرجاني وشقيقه المبروك من بلدهما الأعراض بالقطر التونسي إلى البلاد الطرابلسية لطلب العلم حيث أقاما -على الأرجح- في زاوية المشاط بمصراتة، فحفظـا القـرآن ثـم عـادا إلى بلدهما، فقرآ في جامع الغربة على الشيخ إبراهيم الجمني فعـرفا مختصر الشيخ خليل وقراءته بإذن شيخهما. وكان الشيخ علي الفرجاني من أجل أصـحاب الـشيخ أبـي راوي متقدم الذكر، كان يحبه محبة عظيمة ولا يرد له كلاما، أخذ عـنه الـورد وأمره بالتلقين في حياته. وقال التاجوري «هو من أجل أصحاب شيخنا أبي راوي، بل هو المظنون بكونه خليفته»[44]. وسمه الشيخ علي النوري الصفاقسي بـ«الشيخ

43- هناك خلاف في تاريخ بناء مدرسة الشيخ إبراهيم الجمني، ففي حين يؤكد الوزير السراج أنها بنيت في عهد مراد الثاني (1070-1086هـ/1656-1675م) يؤكد محمد أبو راس الجربي أن بانيها هو مراد الثالث وذلك سنة 1113هـ/1701م، وقد انحاز الأستاذ الأثري رياض المرابط سنة 1086هـ/1675م كتاريخ لتأسيس المدرسة حيث توفي مراد الثاني قبل نهاية الأشغال في ما روى الوزير السراج، وهو التاريخ الذي أقره الأثري جورج مارسيه، ونحن من جانبنا نميل إلى هذا التاريخ فيما لو صح الخبر بأن الشيخ أبي راوي المتوفى سنة 1088هـ/1677م هو الذي نصب محراب مسجد المدرسة باعتبار تخصصه في علم الميقات والحساب. انظر: مرابط (رياض)، المرجع السابق، ص 34-35؛ مخلوف (محمد)، شجرة النور الزكية، ص 306، ترجمة الشيخ أبي رواي رقم 1185 وص 324، ترجمة الشيخ إبراهيم الجمني، رقم 1266.

44- التاجوري (عبد السلام)، فتح العليم، ص

الأجل الصالح الناصح»[45].

أخـذ عـنه الشيخ عبد السلام التاجوري صاحب فتح العليم الذي ينعته بـ« صاحبنا وشـيخنا» وقـال «اجـتمعت بهما سنة ثمان وسبعين وألف [1078هـ/1667-68] في زاوية المشاط، وقرأت عليهما شيئا من القرآن»[46].

ويـستنتج ممـا ورد مـن الإشارات المصدرية أن الشيخ على الفرجاني قد كان من كـبار الـدعاة للطـريقة السلامية سواء أثناء إقاماته الكثيرة بطرابلس أو إقامته بقابس. ففي حـديث الـتاجوري عن شيخه يقول: «وأما سيدي علي فهو الآن على سيرة شيخه سيدي أبـي راوي، وقـد تـبعه خلـق كثير على طريقة الشيخ سيدي عبد السلام، وانتفعوا به علما وعمـلا»[47]. وذكـر في موضـع سـابق أن الـشيخ أبـا راوي أمـر الـشيخ علـي الفرجاني بالـتلقين في حـياته «فتبعه خلق كثير بقابس وما حولها في حياة الشيخ وبعده، وهو إلى الآن بحمـد الله في ازديـاد وبـركة»[48]. إلا أن حـياة الـشيخ علي الفرجاني لم تمر دون صـعوبات بسبب تعلقه بالطريقة السلامية، فقد تربص به خليل باشا القرمانلي المعروف بتحامله على أهل البدع مدة ولايته، فلم يدخل طرابلس إلا بعد موته[49].

تـوفي الشيخ علي الفرجاني سنة 1144هـ/1731-32م، وذكر محمد مخلوف أنه دفين شنني قابس[50]، وعليه سار محمد محفوظ الذي ذكر أنه دفن بزاويته في قرية شنني مـن قـرى قـابس[51]. وقـد وهم كل من الشيخ مخلوف ومحمد محفوظ لأن الشيخ علياً

45- النوري الصفاقسي (علي)، رسالة في حكم السماع وفي وجوب كتابة المصحف بالرسم العثماني، تح محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، 1986، ص 14.

46- التاجوري (عبد السلام)، فتح العليم، ص

47- المصدر نفسه، ص 378.

48- المصدر نفسه، ص 350.

49- ابن غلبون، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تح الطاهر الزاوي، مكتبة النور، 1967، ص 157.

50- مخلوف (محمد)، شجرة النور الزكية، ص 318، وذلك ضمن ترجمة الشيخ عبد السلام التاجوري رقم 1243. ويبدو أنه قد نسي ما كتبه قبل ذلك في (مواهب الرحيم) نقلا عن (فتح العليم) للتاجوري من أن المقبور بزاوية شنني بقابس هو سيدي عبد السلام الفرجاني لا والده علي الفرجاني.

51- النوري الصفاقسي (علي)، المرجع السابق، ص 14-15، هامش 2. وقد أحال محفوظ في هامشه على كتاب (قابس جنة الدنيا) لمحمد المرزوقي، ص 35، وهو وهم منه لأن المرزوقي لم يحدد نسبة =

الفرجاني مدفون بزاويته بقرية كعام بساحل حامد بالقطر الليبي، أما دفين شنني قابس فهو ابنه عبد السلام، ومنه تواصل نسل الفرجاني بقرية شنني[52] (فتح العليم 302) يقول التاجوري: «وقبره مشهور بساحل حامد، وله زاوية بشنني قابس مقبور بها ابنه الولي الصالح سيدي عبد السلام»[53].

6. الشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري

هو عبد السلام بن صالح بن عثمان بن عز الدين بن عبد الوهاب بن عبد السلام الأسمر. من رؤساء الطريقة العروسية. وسمه الشيخ مخلوف بـ«العالم الماجد الفاضل، سلالة الأماجد الأفاضل، الولي الصالح العامل، سيدي عبد السلام المشتهر بالعالم»[54]. ولد سنة 1058هـ/1648-49م بتاجوراء من أعمال طرابلس الغرب ونشأ بها. وأخذ التلقين عن الشيخ سيدي أبي راوي الزليطني دفين جزيرة جربة[55] والشيخ محمد بن مقيل (1054هـ- 1101هـ)[56]. وقد أكد الشيخ محمد مخلوف أنه رحل إلى تونس من أجل طلب العلم فدخل صفاقس وسوسة، وذكر هو نفسه في (فتح العليم) جملة من مشايخه الذين قرأ عليهم العلوم وهم كثيرون، فمن التونسيين الشيخ علي الفرجاني، والشيخ محمد العروي السوسي التونسي، والشيخ أحمد الشرفي الصفاقسي، والشيخ محمد بن الشيخ، فقيه تونس ومفتيها، يقول: «حضرت درسه في شرح الصغرى مرارا سنة 1104هـ طالعا للحج وراجعا»[57]، والشيخ علي النور الصفاقسي (ت. 1118هـ/ 1706م)؛ وعلى غيرهم من المغاربة والمشارقة كثير منهم: الشيخ عبد القادر الفاسي، والشيخ ميارة، والشيخ حمزة بن عبد الله العياشي، والشيخ عبد الباقي الزرقاني (ت.

=

الزاوية إلى أحد من الفرجانيين بل نقل ما قرأه على النقيشة الأثرية ونصه مبتور كما يلي (بن الفرجاني بن عمر سنة 1144) أو 1244. وذكر المرزوقي أن المعلم المزور يطلق عليه الأهالي (زاوية سيدي الفرجاني). انظر: المرزوقي (محمد)، قابس جنة الدنيا، مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد، 1962، ص 35.

52- التاجوري (عبد السلام)، فتح العليم، ص 303، هامش رقم 1.

53- مخلوف (محمد)، مواهب الرحيم، ص 260، نقلا عن فتح العليم للتاجوري.

54- مخلوف (محمد)، مواهب الرحيم، ص 260.

55- المصدر نفسه، ص 260.

56- التاجوري (عبد السلام)، فتح العليم، ص 367-369.

57- المصدر نفسه، ص 392.

1099هـ/1687-88م)، والشيخ محمد الخرشي (ت. 1101هـ/1689-90م) والشيخ إبراهيم الشبرخيتي والشيخ الشرقاوي (ت. 1103هـ/1691-92م) والشيخ إبراهيم الكردي (ت. 1102هـ/1690-91).

ومما تجدر الإشارة إليه تلك الرسالة التي بعث بها الشيخ عبد السلام التاجوري إلى شيخه بصفاقس الشيخ علي النوري وفحواها تأليفان له يتعلق أولاهما بقضية السماع وضرب البندير التي اشتهرت وتميزت بهما طريقة الشيخ عبد السلام الأسمر، أما التأليف الثاني فيتعلق بالحكم الشرعي في اتباع رسم المصحف العثماني، هل هو مندوب أم واجب ؟ وقد وقع في هاتين المسألتين اضطراب بين فقهاء طرابلس الغرب مما دفع التاجوري إلى التأليف فيهما وعرض ما حرره على شيخه النوري طالبا منه مطالعتهما والتعقيب عليهما. وقد تردد الشيخ النوري في الجواب مدة لكن يبدو أن التاجوري قد أوعز إلى الشيخ علي الفرجاني أن يلح عليه في الطلب مما شجع الشيخ على تأليف رسالته التي مهرها بـ« رسالة في حكم السماع وفي وجوب كتابة المصحف بالرسم العثماني». وأرخها بأواخر شهر محرم فاتح سنة 1117هـ/أفريل 1706م. ويستشف من متن هذه الرسالة أن الشيخ النوري كان يكن احتراما شديدا للشيخ التاجوري بدليل عبارات المدح التي اختصه بها: «الشيخ الفاضل المتقن المتفنن الكامل، نخبة الزمان وقدوة الأقران»، وكذا بالنسبة للشيخ علي الفرجاني الذي وسمه بـ« الشيخ الأجل الصالح الناصح»[58]. أما ما كان يكنه من احترام للشيخ عبد السلام الأسمر فهذا واضح من عباراته التالية «الشيخ العارف الولي سيدي عبد السلام أعاد الله علينا من بركاته»، فكان متفهما لطريقة الشيخ في ضرب البندير فقال: «فلعله وأمثاله لا يسمعون إلى شيء بهوى وطبع -كما هو معزو في غالب الطباع- بل يسمعه بحق لحق، وبالله وفي الله، وكل شيء يسمعه يحرك منه ما هو كامن فيه من الأحوال السنية والمقامات العلية، فالأصواب تحركهم، وتنقلب معانيها في حقهم»[59].

إن مشاركة الشيخ النوري في مثل هذه القضية الخلافية المتعلقة بخصوصية طريقة الشيخ عبد السلام الأسمر، لا شك أنه أضفى صبغة إشهارية عليها في القطر التونسي على اعتبار أهمية وإشعاع مدرسة الشيخ النوري بصفاقس ودورها في تخريج

58- النوري الصفاقسي (علي)، المصدر السابق، ص 14.

59- المصدر نفسه، ص 17.

أعـلام علمـاء القطـر في ذلك الزمن، مما يفترض أنه يكون له دور هام في نشر الطريقة السلامية في البلاد التونسية وشهرة أعلام دعاتها كالشيخين التاجوري والفرجاني.

تـوفي الـشيخ عـبد السلام الحفيد في 5 شوال 1139هـ/27 ماي 1726م. وخلف مجموعة من المؤلفات أشهرها كتابي (فتح العليم في مناقب عبد السلام بن سليم)، انتهى منه في آخر جمادى الأول سنة 1100هـ[فيفري 1689][60]. و(كتاب الإشارات لبعض مـا بطـرابلس مـن المـزارات).كما ينسب له أيضا كتاب اسمه (ذيل المعيار)، و(تخميس مـنظومة ابـن إدريـس الـشافعي)، ويضيف ابن غلبون أن له كتابة على المختصر رغم أنه اختصر بها شرح الشيخ عبد الباقي الزرقاني[61].

ب. نتائج النصوص المصدرية

لقـد بـات مـن الراجح لدينا من خلال تراجم أعلام الطريقة السلامية التي حاولنا تكويـنها اعـتمادا على المصادر المتوفرة لدينا أن هذه الطريقة قد سجلت حضورا مبكرا بالـبلاد التونـسية بداية من تواجد الشيخ عمر بن حجا صاحب الشيخ عبد السلام الأسمر وخليفـته بالـساحل التونسي وكان ذلك على الراجح في العقد الأخير من القرن السادس عـشر وهـي فـترة تـزامنت مـع الانتـصاب العثمانـي بـتونس الـتي صـارت إيالة ملحقة بالـولايات العثمانـية تديرها هيئة من قادة الإنكاشية (الآغا، الداي، الباي، القبودان رايس) يجمعهـم (الديـوان) المخـصص لفـصل قـضايا الجند وتدبير شؤون الولاية. وقد تزامن مـوت الـشيخ عمـر بـن حجـا سـنة 999هــ/1590م مع ثورة صغار الجند بتونس على رؤسـاء الديـوان الـتي افتتحت عهد حكم الدايات بداية إبراهيم رودسلي الذي تولى لمدة ثـلاث سنوات ثم الداي موسى الذي تولى بعده إلى سنة 1002هـ/1594م ثم عثمان داي الذي حكم من سنة 1598 إلى سنة 1610 والذي عرف بإدارته القوية للبلاد وجهوده في عمارتها واحتضانه لجاليات الأندلسيين المهاجرين على إثر صدور قرار طردهم النهائي مـن إسبانيا سنة 1609 بأمر من الملك الإسباني فيليب الثالث. وقد انتهت مدة حكم هذا الـداي بوفاته سنة 1610 ودفن بزاوية سيدي ابن عروس بالعاصمة[62] والتي كانت حرما

60- التاجوري (عبد السلام)، فتح العليم، ص 392.

61- المصدر نفسه، ص 9-10 (قسم الدراسة).

62- عبد الوهاب (حسن حسني)، خلاصة تاريخ تونس، تح حمادي الساحلي، دار الجنوب للنشر، تونس، 2001، ص 113-115.

يتمتع بحق اللجوء. وقد احترم عثمان داي هذا الحق لما أمر بقتل محمد باي الثائر عليه سنة 1010هـ/1601-02م ولجأت والدته للزاوية المذكورة[63]، مما يؤكد السمعة التي كان يحضى بها سيدي بن عروس وزاويته لدى حكام تونس، ومما قد يكون عاملا مشجعا لانتقال أتباع سيدي عبد السلام الأسمر صاحب الطريقة العروسية إلى القطر التونسي، ولا غرو فزاوية سيدي بن عروس هي المعقل الأم لهذه الطريقة تتلوها في المقام الثاني -على الأرجح- زاوية سيدي أبي راوي الفحل بمدينة سوسة بالساحل التونسي، بما أن صاحبها وارث هذه الطريقة، وهو ما قد يفسر إلى حد ما سبب اختيار سيدي عمر بن حجا الاستقرار في الساحل التونسي الذي حيث كثافة التواجد الطرابلسي كما سنرى لاحقا. ومن المؤسف أننا لا نملك أدنى معلومات عن حياة سيدي عمر بن حجا بالساحل التونسي وطبيعة الدور الذي لعبه هو وابنه محمد وكذلك الجالية الطرابلسية المقيمة بالساحل من خلال كثرة الزوايا السلامية التي ستؤسس في هذه الجهة فيما بعد.كذلك لا نملك للأسف دليلا قاطعا على زيارة صاحب الشيخ عبد السلام الأسمر الشيخ أحمد بن مدين السقفي إلى القطر التونسي حيث مثوى أجداده لكننا لا يمكن أن ننفي هذا الاحتمال وما يمكن أن يترتب عنه من نشر للطريقة السلامية في تونس فيما لو تأكدت لدينا تلك الزيارات.

أما عن الطبقة الثانية من جيل أتباع الشيخ عبد السلام الأسمر فقد تأكد لدينا حضور الشيخ منصور بن كحيل الأمي -الذي تربى في جوار أبي فارس أصغر أولاد الشيخ عبد السلام الأسمر- بالبلاد التونسية وبالتحديد بجزيرة جربة ولقاؤه بالشيخ الدنيدني (ت. 1082هـ/1671-72م)، مما يمكن أن يعتبر إشارة واضحة على وصول الطريقة السلامية إلى البلاد التونسية عن طريق هذا الشيخ. حيث سيتعزز حضور الطريقة السلامية وأتباعها بالجنوب التونسي خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر عن طريق الشيخ علي الفرجاني الذي سيؤسس زاويته بشنني ويكون له دور ريادي وحاسم في نشر طريقة الشيخ عبد السلام باعتباره خليفة للشيخ أبي راوي بن محمد بن عرفة حفيد سيدي عبد السلام الذي سجلت لنا المصادر أيضا زيارته للشيخ علي الفرجاني ووفاته بجزيرة جربة بسبب الطاعون الجارف، حيث سيكون مثواه الأخير وتؤسس له زاوية لا شك أنها لعبت أيضا دورا مهما في التعريف

63- الوزير السراج (محمد بن محمد الأندلسي)، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تح محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، ج II، المجلد الثاني، ص 349.

بالطـريقة الـسلامية ونـشرها. هـذا دون أن نـتجاهل المجهـود الذي قد يكون بذله الشيخ (مـسعود الفرجانـي) شقيق سيدي علي الفرجاني في مآزرة جهود شقيقه، وكذلك الدور الذي قام به الشيخ عبد السلام الفرجاني (ابن الشيخ علي الفرجاني ودفين زاوية والده) في نـشر الطريقة السلامية وهو دور سيتوارثه أبناؤه وأحفاده من بعده إذ بهم ومعهم سيحفظ ويتواصـل سـند الطـريقة الـسلامية إلى مطلع القرن العشرين وهو أثبت وأقدم سند لهذه الطريقة في بلادنا على حد علمنا. كما توفر لنا مصادرنا العديد من الإشارات التي تؤكد إشـعاع الـزاوية الـسلامية بـشنني، من ذلك زيارة الشيخ أبي راوي للشيخ علي الفرجاني وكذلك زيارة الشيخ علي الغزال الفيتوري لقابس الذي ولئن كنا لا نملك ترجمة ضافية لـه فإننـا لا نـستبعد أنـه مـن معاصـري الشيخ الفرجاني. ويبدو أن تكاثر فقراء الطريقة الـسلامية بقابس قد كان متابعا بعين الحذر من طرف السلط الرسمية، وهو ما قد توحي بـه إشـارة الـشيخ عـبد الـسلام التاجوري في فتح العليم قال: «أخبرني بعض الإخوان أن بعـض جـند تـونس جعـل ينتهـر بعض فقراء الشيخ بقابس» إلى آخر الخبر الذي يؤكد علـى تمـتع هؤلاء الفقراء بحماية شيخهم سيدي عبد السلام ضد كل من يتعرض إليهم حتـى وإن كـان مـن السلط الحاكمة حيث تنتهي المنقبة بهروب أعوان المخزن وتعجّب الـناس وإشـادتهم بالـشيخ الأسمـر[64] هـذا ومما لا شك فيه أن زيارة الشيخ عبد السلام الـتاجوري للـبلاد التونـسية لطلـب العلم بمدينتي سوسة وصفاقس وعلاقته بالشيخ علي الفرجاني قد ساعدت على انتشار الطريقة السلامية بالربوع التونسية لا سيما والرجل من أحفـاد الـشيخ المـشهورين وأرباب القلم ناهيك وأنه مؤلف أحد أهم مصادر سيرة جده وهو كتاب (فتح العليم في مناقب سيدي عبد السلام بن سليم).

وتأسيـسا على ما سبق يمكن أن ندحض ما توصل إليه الأستاذ فتحي زغندة من أن الطـريقة الـسلامية قد دخلت البلاد التونسية منذ سنة 1850 في مدة حكم أحمد باشا بـاي (1835-1855)، لـنؤكد أنها كانت معروفة ومنتشرة بالبلاد التونسية منذ وفاة الشيخ في نهايـة القـرن الـسادس عشر وقد استطعنا إلى حد هذه المرحلة من التحليل أن نؤكد وجودها وانتشارها على مدى قرن ونصف من الزمان، أي من تاريخ وفاة سيدي عمر بن حجـا سـنة 999هـ/1590م إلى وفاة سيدي عبد السلام التاجوري سنة 1139هـ/1726، في حـين تبقـى المعلومات المتصلة بها والتي تغطي الفترة اللاحقة، أي إلى سنة 1850، محجـوبة عـنا حالـيا ورهـن مجهـودات الـبحث التي يجب أن تبذل في الغرض اعتمادا

64- التاجوري (عبد السلام)، فتح العليم، ص 89.

أساسا على الشواهد الأرشيفية للدولة التونسية والشواهد الأثرية التي يجب أن تشمل الزوايا المنسوبة لسيدي عبد السلام الأسمر المنتشرة في كامل ربوع البلاد التونسية وخصوصا جهة الساحل التي سنقتصر عليها في هذا البحث لتوفر بعض مصادرها لدينا.

ثالثاً: قراءة في خارطة توزع الزوايا السلامية بتونس: الساحل التونسي مثالا

أ. النتائج الإحصائية

سنة 1925 قامت سلطات الحماية الفرنسية بتونس في إطار إحكام السيطرة على البلاد ومراقبة كل الظواهر السياسية والاجتماعية والثقافية المهمة فيها بإحصاء شامل لزوايا البلاد التونسية ومريديها، وقد احتفظت مؤسسة الأرشيف الوطني بوثائق الإحصاء مما يسمح بمعرفة التوزع الجغرافي والحجم الديمغرافي والاقتصادي لكل طريقة صوفية على حدة. فبالنسبة للطريقة السلامية بينت الإحصائيات وجود أتباع لها في مناطق السواحل والجنوب والوسط الغربي التونسي. فبالنسبة للسواحل سجل لها وجود في كل من بنزرت، تونس، قرنبالية، سوسة، جرجيس، صفاقس، قابس، وجربة. بمجموع 5606 من الأتباع؛ أما في منطقة الجنوب فقد سجل لها وجود بكل من قفصة، توزر، مدنين، قبلي، تطاوين، بمجموع 3475 من الأتباع؛ في حين لم يسجل وجود للطريق السلامية في منطقة الوسط والوسط الغربي إلا في مدينتي القيروان وتالة بمجموع3855 من الأتباع. وهكذا يكون المجموع العام لأتباع الطريقة السلامية في مختلف أنحاء البلاد التونسية حسب إحصاء سلطات الحماية لسنة 1925 قد بلغ 12489، وهو رقم يجعل هذه الطريقة تأتي في المرتبة الخامسة من حيث الأهمية بالنسبة للطرق الأخرى التي تتصدرها الطريقة القادرية بـ117681 من الأتباع تليها الطريقة الرحمانية بـ114761 من الأتباع ثم العيساوية بـ37534 من الأتباع، ثم التيجانية بـ 16094 من الأتباع[65]. ويلاحظ أنه رغم الفرق الشاسع بين أتباع الطريقة السلامية والطرق المتقدمة عنها وخصوصا الثلاثة طرق الأولى المذكورة فإنها مع ذلك تتقدم بفرق شاسع الطرق اللاحقة لها في الرتبة وهي طريقة سيدي أبي علي النفطي والطريقة الشاذلية والطريقة

65- استقينا هذه المعطيات الإحصائية التي تعود إلى سنة 1925 من المرجع التالي: العجيلي (التليلي)، الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (1881-1939)، منشورات كلية الآداب بمنوبة، تونس، 1992، ص 65-66، نقلا عن وثائق الأرشيف الوطني وخصوصا: الملف رقم 97-3. المتعلق بالطريقة السلامية، والتي مكنته من إقامة جدول التوزيع الجهوي لأتباع الطرق في البلاد التونسية سنة 1925.

المدنية. ورغم قلة أتباع الطريقة السلامية نسبيا مقارنة مع من يتقدمها فقد سُجِّل لها مدخولٌ سنويٌ متأتي من الزيارات يفوق غيرها من الطرق الأكثر منها أتباعا، من ذلك مثلا أنها حققت دخلا سنويا قدره 62445 فرنكا مقابل 56310 فرنكا حققته الطريقة العيساوية رغم أن عدد أتباعها يقدر بثلث عدد أتباع الطريقة العيساوية، في حين لم يتجاوز مدخول الطريقة التيجانية 24000 فرنكا. ويفسر هذا التفاوت في المدخول السنوي للزيارات إلى حد ما بالوضعية الاجتماعية للأتباع. حيث تؤكد وثائق الأرشيف الوطني أن السلامية لها أتباع كثيرون ضمن فئة التجار في نفزاوة والذين يترددون سنويا على السودان(66)، أما في الوطن القبلي فينتمي كلهم إلى فئة الفلاحين، في حين نجدهم في القيروان ضمن التجار الصناعيين، وفي صفاقس ضمن العدول(67).

ومما يلفت الانتباه حسب نفس الإحصاء أن منطقة الشمال الغربي لم يسجل فيها البتة حضور للطريقة السلامية مما يمكن تفسيره بهيمنة الطريقة الرحمانية على المنطقة بدرجة أولى والطريقة القادرية بدرجة ثانية ثم العيساوية بدرجة أقل.

ومما تجدر الإشارة إليه أن أكثر منطقة تكثف لأتباع الطريقة السلامية على مستوى السواحل التونسية نجدها بمدينة سوسة بعدد من الأتباع قدره 2077 ثم تأتي في المرتبة الثانية مدينة تونس بـ1012 نفرا ثم مدينة قابس بـ 915 نفرا. أما في منطقة الجنوب فتتصدر مدينة قفصة باقي المدن الأخرى بـ2002 من الأتباع مقابل أعداد قليلة جدا في توزر، مدنين، قبلي، وتطاوين. أما في منطقة الوسط والوسط الغربي فقد بلغ عدد أتباع السلامية بتالة 3855 مقابل 455 من الأتباع بمدينة القيروان(68).

إن الإحصائيات السابقة تقودنا إلى التعرف على أهم مناطق التكثف السلامي بالبلاد التونسية والتي يمكن ترتيب أهمها على النحو التالي: 1. تالة، 2. سوسة، 3. قفصة، 4. تونس، 5. قابس. فبالنسبة لقابس يأتي عدد أتباع الطريقة السلامية في المرتبة الأولى قبل الطريقة القادرية والتيجانية فهي حينئذ الطريقة المهيمنة في الجهة. ويمكن تفسير ذلك بالدور الذي لعبته زاوية سيدي علي الفرجاني بشنني في نشر هذه الطريقة

66- العجيلي (التليلي)، المرجع السابق، ص 63، اعتمادا على: أ.و.ت.، معلومات حول الزوايا والشخصيات الدينية مقدمة من طرف المراقب المدني لبنزرت في 1896/04/20، ملف 97، وثيقة 3.

67- ن.م، ص 63، اعتمادا على: ملف 97، وثيقة 3 حول الطريقة السلامية.

68- ن.م.، ص 65-66، (جدول: التوزيع الجهوي لأتباع الطرق في البلاد التونسية سنة 1925).

وقد سبق أن توقفنا عند هذه الملاحظة؛ أما بالنسبة لمدينة تونس فإن الطريقة السلامية تحتل المرتبة الثالثة من حيث أهمية عدد الأتباع بعد الطريقة الرحمانية ثم القادرية في حين تبقى الطريقة الشاذلية قليلة الأتباع جدا مقارنة مع الطرق الأخرى (50 مريدا) رغم وجود المقام الشاذلي بتونس ورغم أنها الطريقة الأم بالنسبة للرحمانية والسلامية. وهنا يجب أن لا ننسى أيضا أن مدينة تونس هي مقر زاوية الولي الصالح سيدي أحمد بن عروس ومعقل الطريقة السلامية بالبلاد على الأقل على المستوى الرمزي حيث تعتبر زاوية سيدي بن عروس الزاوية الرئيسة التي احتضنت الطريقة السلامية وأسهمت في المحافظة عليها ونشرها[69]، كما احتضنت بعض زوايا العاصمة الطريقة السلامية حيث كانت تقام حلقات الذكر. ويمكن حصر تلك الزوايا في ما يلي: زاوية سيدي الحاج قاسم، زاوية سيدي محرز، زاوية سيدي شيحة، زاوية سيدي عمارة بالحلفاوين، زاوية سيدي ناجي بحي المركاض، زاوية للّة بركة بطحاء سيدي المشرف.

أما في جهة سوسة التي تحتل فيها الطريقة السلامية المرتبة الثانية في الأهمية بعد الطريقة العيساوية، فإن ذلك يمكن تفسيره نسبيا بحضور سيدي عمر بن حجا صاحب سيدي عبد السلام الأسمر بالمنطقة واختياره الاستقرار في قرية الداموس، ثم تشييد ضريح له بنفس القرية، ويمكن تفسيره أيضا بوجود زاوية سيدي أبي راوي الفحل بها، هذا فضلا عن الكثافة الطرابلسية في منطقة الساحل التونسي التي يبدو أنها أثرت على المزاج الطرقي للسكان، وإن كانت المسألة تحتاج إلى مزيد البحث والتحري. ومما تجدر الإشارة إليه أن معلوماتنا المصدرية تؤكد وجود حوالي 14 زاوية ومقام لسيدي عبد السلام الأسمر في 14 تجمع سكني بالساحل التونسي حيث تتوزع تلك الزوايا والمقامات على المدن والقرى التالية: سوسة، القلعة الصغرى، مساكن، جمال، المنستير، بنان، صيادة، قصر هلال، المكنين، طبلبة، المهدية، روجيش، قصور الساف، أجم. جلها يعود إلى ما قبل منتصف القرن التاسع عشر مما يؤكد قدم انتشار الطريقة السلامية بالساحل الأوسط التونسي[70]. إن هذه الكثافة السلامية في الساحل التونسي وبالتحديد

69- زغندة (فتحي)، المرجع السابق، ص 61.

70- الزبيدي (مراد)، تحقيق مخطوط دار الكتب الوطنية التونسية رقم 18669 (أطلس جغرافي وإحصائي لقيادتي سوسة والمنستير خلال منتصف القرن التاسع عشر)، رسالة نوقشت سنة 2004 لنيل شهادة الدراسات المعمقة في التراث، مرقونة وموضوعة بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية تونس الأولى، ص 165، 179 (هامش 22)، 246، 248 (هامش 5)، 263، 292 (هامش 12)، 314 =

في منطقة الساحل الوسط يمكن تفسيرها في نظرنا إلى حد ما بالهجرة الليبية إلى البلاد التونسية وبالتحديد إلى جهة الساحل خلال الفترتين العثمانية والحسينية مما يتجه الوقوف عنده.

ب. أثر الهجرة الليبية في انتشار الطريقة السلامية بتونس
جهة الساحل الأوسط أنموذجا

ضمن تحقيقنا للأطلس الجغرافي والإحصائي لقيادتي سوسة والمنستير خلال منتصف القرن التاسع عشر كان من بين محاور اهتمامنا التركيبة العرقية لقرى ومدن الساحل الأوسط التونسي السبعة والخمسين المذكورة في نص المخطوط، وقد لاحظنا أن الحضور الطرابلسي بهذه الرقعة الجغرافية من البلاد التونسية كثيف بقدر يستحق إفراده مستقبلا بدراسة مستقلة للوقوف على أسبابه وخلفياته التاريخية والحضارية. وقد كان الساحل الأوسط التونسي خلال تلك الفترة ينقسم إداريا إلى قيادتين، هما قيادة سوسة التي كانت تضم 27 تجمعا سكنيا حضريا وقيادة المنستير التي كانت تضم 30 تجمعا سكناي حضريا. فما هو حجم الحضور الطرابلسي بكلتا القيادتين المذكورتين وما هي أماكن انتصاب الزوايا السلامية في خضم هذا الحضور ؟

1. الحضور الطرابلسي بقيادة سوسة

بتتبع التركيبة العرقية لسكان قيادة سوسة خلال منتصف القرن التاسع عشر لاحظنا أن ثمانية قرى من بين الـ27 تجمعا سكنيا لهذه القيادة تتكون من العنصر الطرابلسي، فقد كانت العديد من عائلات قرى أكودة[71]، سيدي بوعلي[72]، الكنايس[73]، منزل كامل[74]، جمال[75]، طرابلسية الأصل؛ أما أغلب سكان قرية القلعة

=

(هامش 43)، 328، 371 (هامش 4)، 389، 392 (هامش 6)، 399 (هامش 5)، 417، 438، 455، 459، 475.

71- الزبيدي (مراد)، ن.م، ص ص 199 (هامش 9).

72- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 209 (هامش 5).

73- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 239 (هامش 7). مع الإشارة إلى وجود موضع قريب من هذه البلدة يسمى (غريان). انظر: ن.م.، ص 238.

74- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 280 (هامش 6)

75- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 293-294 (هامش 18).

الكبرى فقد كانوا يتكونون من بربر لواتة أصيلي طرابلس الغرب حيث تنسب الرواية الشفوية إلى عبدات لواتة تأسيس القرية أصلا[76]. كما كان الطرابلسيون من أهم العناصر العرقية لقرية جرادو الجبلية وينقسمون إلى أولاد منصر ويقيمون بـ(تلامان) وطرهونة ويقيمون بـ(الحرات)[77]، أما القلعة الصغرى التي ينتمي إليها سيدي أبي راوي الفحل وارث الطريقة العروسية وشيخ شيخ سيدي عبد السلام الأسمر، فقد كانت تتكون من عدة مجموعات عرقية كانت كل واحدة منها تقيم بحومة خاصة بها من ذلك حومة الطرابلسية، ومنهم (أولاد لطيف) الذين ينسب لهم إعادة بناء الجامع الكبير بالقرية[78].

كانت مدينة سوسة حاضرة ومستقر الشيخ أبي راوي الفحل شيخ شيخ سيدي عبد السلام الأسمر وسند الطريقة العروسية مأوى لزاويته الشهيرة التي كانت حرما وفيها تتلمذ الشيخ أحمد بن عبد الله الرشيد الساحلي دفين القيروان المشهور بـ(أبي تليس) عن شيخه أبي راوي[79]. وقد زار الشيخ عبد السلام التاجوري هذه المدينة في سني تحصيله

76- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 204 (هامش 11).

77- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 228 (هامش 4).

78- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 248 (هامش 11).

79- هو الشيخ سيدي أحمد أبو تليس القيرواني، أحد مشايخ السلسلة العروسية، قيرواني الأصل، حسده علماء إفريقية ورموه بالزندقة واشتكوا به إلى السلطان وكتبوا عليه شهائد، فركب هو وأصحابه البحر إلى أن وصلوا إلى بلاد بني وليد ومكثوا نحو السبع سنين فيها، ولما سمع بالأمير توفي رجع إلى القيروان ومات بها وهو في الخمسين من عمره، ودفن فيها بربض الصفيحة الذي كان يعرف بربض أولاد غيث، وبنيت على ضريحه قبة كبيرة مرتفعة وقبره يزار ويتبرك به. وكان أولاد بوقبرين من النطايرة، فرقة من أولاد خليفة من جلاص الذين كانوا كثيرا ما ينزلون بزاويته، يزعمون أنه من نسل جدهم الولي الصالح بوقبرين. له رحلة إلى المشرق ودخل مصر وجلس للتدريس بالجامع الأزهر فقرأ عليه علماء مصر وعمل الحضرة العروسة بالجامع المذكور وحضر معه فيها علماؤها. ذكره الشيخ عبد السلام الأسمر في وصيته فقال: «كان الشيخ سيدي أحمد بوتليس رحمه الله من أحسن الناس الأخيار والصلحاء والأولياء الأبرار علما وعملا وأدبا وحلما وجمالا». أخذ عنه الشيخ أبو العباس أحمد البرنسي الفاسي الشهير بزروق (ت. 899هـ/1493م)، فيكون أبا تليس بذلك من أعلام القرن الخامس عشر ومعاصرا لآخر حكام الحفصيين. وقد ترجم له محمد بن صالح الكناني القيرواني (ت. 1292هـ/1875م) دون أن يهتدي إلى تاريخ وفاته. انظر: الكناني القيرواني (محمد بن صالح)، تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان في أولياء القيروان، تح محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، ط. أولى، 1970، ص 41-42؛ مخلوف (محمد)، مواهيب الرحيم، ص 240، 243.

العلمي هذه المدينة كما ذكر ذلك الشيخ محمد بن مخلوف المنستيري، فلا غرابة حينئذ أن نجد فيها في منتصف القرن التاسع عشر زاوية لسيدي عبد السلام الأسمر التي قد يكون لطرابلسيي قيادة سوسة دور في وجودها وإشعاعها على أن ذلك يحتاج إلى التأكيد. أما قرية القلعة الصغرى الموطن الأصلي لسيدي أبي راوي الفحل والتي تأكد لدينا الحضور الطرابلسي المكثف بها فقد وجدت فيها خلال نفس الفترة الزمنية زاوية لسيدي عبد السلام غير أنها كانت غير تامة البناء حينذاك ومن المرجح أن وجود هذه الزاوية مرتبط بوجود تلك الجالية الطرابلسية. كما وجدت أيضا بقرية جمال ذات الحضور الطرابلسي زاوية لسيدي عبد السلام بها مسجد تعود لنفس الفترة، أما وجود زاوية ببلدة مساكن -مع عدم تيقننا حسب حالة البحث الراهن بوجود العنصر الطرابلسي- بها فيحتاج إلى تحقيق.

2. الحضور الطرابلسي بقيادة المنستير

كانت قيادة المنستير خلال منتصف القرن التاسع عشر تضم 30 تجمعا سكنا فقد كان العنصر الطرابلسي من بين التركيبة العرقية لحوالي عشر تجمعات عمرانية هي: المنستير[80]، خنيس[81]، الداموس[82]، المكنين[83]، المهدية[84]، الجم[85]، بني حسان[86]، سيدي بوعثمان[87]، المصدور[88] ومنزل خير[89]. وهذا يعنى أن ثلث هذه القيادة كانت آهلة بالطرابلسيين. فبالنسبة لمدينة المنستير كان الطرابلسيون يتوزعون في كل أحياء المدينة ويمثلون 7,9 % من جملة السكان ورغم ذلك كانت لهم حومتهم الخاصة التي تسمى باسمهم (حومة الطرابلسية) التي كانت داخلة ضمن مشيخة الطرابلسية سنة 1860،

80- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 343 (هامش 52).
81- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 353 (هامش 9).
82- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 362 (هامش 7).
83- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 405 (هامش 24).
84- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 441 (هامش 18).
85- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 472 (هامش 1).
86- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 491 (هامش 10).
87- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 494 (هامش 4).
88- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 498 (هامش 5).
89- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 508 (هامش 4).

وكانوا ينتمون مثل باقي زواوة إلى القوات غير النظامية المركزة في المدينة وهو ما تؤكده الوثائق الأرشيفية التي تفيد أن زواوة المنستير أصلهم طرابلسي، وقد أعطى حمودة باشا سنة 1788 إذنه لحسونة الخياشي قائد المنستير بإعفاء الزواوة الطرابلسية بالمنستير ووطنها من دفع الضريبة. وقد كان شيخ زواوة المنستير ووطنها سنة 1823 يدعى قاسم بوسعيد، وسنة 1835 كان يتولى هذه الخطة الحاج محمد بن علي عتيل، وكان شيخ حومة الطرابلسية قبل قدوم أحمد زروق للساحل سنة 1864 يدعى علي الصيادي[90]. كما كان طرابلسيو زواوة بقرية المكنين يمثلون 5،62 % من مجموع السكان. أما بالنسبة لطرابلسيي المهدية فيؤكد الدفتر الجبائي رقم 937 لسنة 1283هـ/ 1866 المتعلق بالطرابلسيين المالكين للعقارات بكامل البلاد التونسية أن عددهم كان في حدود 14 نفرا، أما الدفر الجبائي رقم 624 لسنة 1272هـ/1855م المتعلق بفئة البرانية بمدينة المهدية فيحدد عددهم بـ 31 نفرا حيث تعد عائلة واجه الطرابلسية لوحدها 17 نفرا، وقد كان بالمدينة مسجد يطلق عليه (مسجد واجه) يبدو أنه منسوب لهذه العائلة[91]. وفي حدود سنة 1860 كان أهالي قرية أجم يتجمعون في عدة قصور مستقلة يقطن كل واحد منها مجموعة من الأهالي يطلق عليها (الجماعة) وكان لكل مجموعة شيخ خاص بها، وكان قصر الزاوية خاصا بالطرابلسيين، وكان شيخهم يدعى عمر بن أحمد محجوب[92]. وكانت قرية سيدي بوعثمان التي لم يكن عدد سكانها بين سنة 1843 وسنة 1850 يتجاوز 50 ساكنا تكون من أولاد بن فاضل، أولاد وردارنة أولاد رشفانة ورشفانة طرابلسية[93]. أما قرية الداموس (النسبة إليها: دوامسية) التي تسمى اليوم (منزل النور) والواقعة شمال قرية جمال فإن ديبوا يعتبرها (القرية الطرابلسية في الساحل)، ويذكر أنها تأسست من طرف مجموعة من البدو الطرابلسيين، أصيلي جهة (رجالين) الكائنة في الشمال الغربي لجفارة الطرابلسية، الذين غادروا بلادهم الأصلية في نهاية القرن XVIII م فأقاموا في الأول قرب اللوزة الواقعة شمال صفاقس ثم حلوا بالداموس حيث قاموا بغرس 8000 أصل زيتون، لكن عاد الكثير منهم إلى بلاده الأصلية في حين

90- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 343 (هامش 52).

91- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 441 (هامش 18). وقد حول (مسجد واجه) أو التواجه إلى مستشفى. انظر: ن.م.، ص 438.

92- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 472 (هامش 1)، 475-476 (هامش 20).

93- الزبيدي (مراد)، ن.م.، 494 (هامش 4).

استقر البعض الآخر في جهة جبنيانة التي كانت شبه خالية من السكان[94]، أما الأستاذ ناجي جلول فيذهب إلى أن إعادة إحياء القرية التي كانت بالكاد موجودة في العهد الحفصي يعود الفضل فيه إلى قدوم طرابلسيي الجفارة الذين تولوا تأسيس تجمع سكني جديد شبه مستقل على هضبة سيدي ابن حجا الواقعة على بعد كلم واحد غرب القرية، في حين تؤكد الرواية الشفوية أن سيدي ابن حجا يرجع إلى القرن XVII م. ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه القرية تتميز ببنية عمرانية خصوصية ومختلفة عن باقي قرى الساحل الأخرى حيث إنها مشتتة إلى ثلاث نواتاة بنيت أغلب منازلها باللبن المجفف وقد أكد بليسيي الذي زارها قريبا من سنة 1850 أن جزءا كبيرا من مساكنها كان منقورا تحت الأرض على الربوة التي تنتصب فوقها قبة الولي سيدي بن حجا. كانت القرية بين سنة 1843 و1850 تعد 400 نسمة وكان سكانها يتألفون سنة 1900 من مجموعتين عرقيتين هما: (أولاد بوزغندة) و(الطرابلسية). وقد أفضنا الحديث عن هذه القرية لأنها من جهة تعتبر القرية الطرابلسية بامتياز في منطقة الساحل التونسي لتضافر المعلومات حول نسبة تأسيسها للعنصر الطرابلسي المهاجر من ليبيا، ولكونها مثوى أحد أهم أصحاب سيدي عبد السلام الأسمر وهو الشيخ عمر بن حجا مما رجحنا معه أن يكون ذلك عاملا مهما من عوامل انتشار الطريقة السلامية في القطر التونسي وبصفة خاصة في الساحل الأوسط منه رغم إقرارنا أن تاريخ هذه البلدة لا زال يكتنفه الغموض ويحتاج إلى التحقيق العلمي.

لا نستغرب بالنظر لأهمية الحضور الطرابلسي بمدينة المنستير وجود زاويتين بها منسوبتين لسيدي عبد السلام خلال منتصف القرن التاسع عشر، تسمى الأولى زاوية سيدي عبد السلام الأسمر وتقع بالربض الجديد قبالة مسجد سيدي عبد السلام الأسمر الذي حمل أيضا اسم الشيخ، يعود تاريخ بنائه حسب الباحثة عفاف الهلالي للفترة ما بين 1830 و1850 أما الزاوية الثانية فقد بنيت بحومة الطرابلسية في الربض الأقصى تعتقد نسبة بنائها سنة 1272هـ/1855م لشخصية حنفية من أهالي المنستير يدعى (علي المنستيري)، وقد حبس عليها أملاكا من ثروته الخاصة[95]. أما قرية المكنين التي تأكد لدينا وجود زواوة الطرابلسية بها فقد كان فيها زاوية لسيدي عبد السلام، مرتبطة بجامع القصر يعود تأسيسها

94- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 362.

95- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص ص 342-343 (هامش 43).

إلى القـرن الـثامن عـشر وكانـت حرما سنة 1886[96]. كما كانت توجد أيضا بقرية قصر هـلال المجـاورة زاويـة لسيدي عبد السلام، هذا فضلا عن وجود مقام آخر لسيدي بوراوي لا نعلـم إن كان نسبة لأبي راوي الفحل دفين سوسة أم لغيره[97] كذلك الشأن كانت توجد زاويـة للطـريقة الـسلامية بقرية طبلبة التي تليها مما قد يرجح نظرية التأثير الطرابلسي في هـذه المـنطقة[98]. ولا غرابة أن نجد بمدينة المهدية حيث ثبت لنا أيضا حضور طرابلسي بهـا مقـام ومـسجد لسيدي عبد السلام يستغل حاليا مقرا لإدارة عمومية[99] وكذلك الشأن بالنـسبة لـبعض القـرى المجـاورة لهـا كقرية روجيش[100] وقرية قصور الساف[101] رغم عـدم ثبوت وجود العنصر الطرابلسي بهما لدينا. ونختم بقرية الجم معقل طرابلسيي قصر الـزاوية ومـثوى سيدي شعيب جد جد صاحب سيدي عبد السلام الأسمر الشيخ أحمد بن مدين السقفي، فقد كان يوجد بها أيضا زاوية لسيدي عبد السلام[102].

وهكذا فإن كثافة الحضور الطرابلسي بالساحل الأوسط التونسي مع كثافة انتصاب الزوايا والمقامات المنسوبة للشيخ عبد السلام الأسمر في هذه المنطقة من البلاد التونسية الـتي اتخـذناها أنمـوذجا لدراسـتنا، يـستبعد أن تكون محض صدفة، مما يغري بمتابعة فرضية دور هؤلاء الطرابلسيين في ظهور وانتشار الطريقة السلامية ببلادنا غير أن المسألة تستدعي قبل ذلك تسليط بعض الضوء على ظروف وخلفيات تلك الهجرة.

3. خلفيات الهجرة الليبية إلى القطر التونسي في العهد الحديث

كانـت كـل مـن تـونس وليبـيا في قائم حياة الشيخ عبد السلام الأسمر (880هـ/

96- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 403 (هامش 5).

97- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 396 (هامش 6، 7)

98- حول الطريقة السلامية بطبلبة وزاويتها، انظر: بالكحلة (عادل) ورمضان بن ريانة، طبلبة: التقليدية والحداثة في المجتمع العربي، ج، 4، تونس، 2003، ص 73-76.

99- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 438 (هامش 5).

100- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 452 (هامش 2)

101- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 455، 459 (هامش 4).

102- الزبيدي (مراد)، ن.م.، ص 475 (هامش 13). مع الإشارة إلى أن المخطوط 18669 يشير إلى وجود مقام لسيدي أحمد الفرجاني (كان حرما سنة 1886) ومقام لابنه سيدي علي الفرجاني، مما يذكرنا بعائلة الفرجاني بقرية شنني بقابس وعلاقتها بالطريقة السلامية مما يطرح سؤالا عن علاقة ذينك المقامين بتلك العائلة.

1475م-981هـ/1573 ترزحان تحت الاحتلال الإسباني، وقد استطاعت الدولة العثمانية تخليص ليبيا من الأسبان سنة 1551 ثم تونس سنة 1573، فحصل تقارب كبير بين الإيالتين ولم تكن هناك عراقيل تمنع التنقل بين البلدين، أما في عهد درغوث باشا فقد أصبحت الإيالتان امتدادا لبعضهما[103].

ولئن سجلت هجرة بعض التونسيين إلى القطر الليبي واستقرارها بها واستمرار ذلك إلى القرن التاسع عشر[104] فإن هجرة الليبيين إلى القطر التونسي كانت أكثر كثافة وحجما. وبغض النظر عن هجرة الشيخ عمر بن حجا إلى الساحل التونسي خلال نهاية القرن السادس عشر والغموض الحائم حول تاريخ تأسيس قرية الداموس التي استقر فيها -وقد تصدينا لذلك في مظان ترجمة ابن حجا-، فقد كانت التجارة عاملا إيجابيا في حركة الهجرة بين البلدين، ففي بداية القرن الثامن عشر وفي عهد الدولة الحسينية لعبت القوافل التجارية دورا بارزا في حركة الهجرة حيث كانت التجارة مزدهرة بين تونس وغدامس، وكان للغدامسية دار مشهورة بمدينة تونس كانت بمثابة الوكالة التجارية، وقد لعب عبد الحميد الغدامسي دورا كبيرا في استقرار العديد من العائلات الغدامسية بتونس، وعن طريق التجارة كانت صلتهم بذويهم في ليبيا متواصلة[105].

كما نظم حكام تونس حرسا من الغدامسية أطلق عليهم (اللواجة) كلفوا بحراسة مدينة تونس ليلا واشتهروا بانضباطهم وإخلاصهم حتى أن حمودة باشا رتب لهم قفيزا من الملوخية وخمسة ثيران تمنح لهم سنويا جزاء لهم، لم تحذف إلا في عهد أحمد باشا (1837-1855) [106]، وفي نهاية القرن التاسع عشر تحدث محمد بن عثمان الحشايشي في رحلته الصحراوية عن الغدامسية، وذكر أن تونس هي المدينة التي يفضلونها وتستهويهم أكثر[107]، وأن عددهم في تونس بلغ 300، جميعهم أثرياء

103- أبو القاسم (إبراهيم)، الخلفيات التاريخية للهجرة الليبية إلى الإيالة التونسية خلال القرنين 18 و19، في المجلة التاريخية المغاربية، العددان 85-86، مي 1997، ص 33.

104- أبو القاسم (إبراهيم)، ن.م.، ص 34.

105- أبو القاسم (إبراهيم)، ن.م.، ص 34.

106- الحشايشي (محمد بن عثمان)، الرحلة الصحراوية عبر أراضي طرابلس وبلاد التوارق، تر وتح محمد المرزوقي، الدار التونسية للنشر، 1988، ص 172.

107- الحشايشي (محمد بن عثمان)، ن.م.، ص 167.

يمتلكون العقارات ومنهم من تُجاوز ثروته المليون[108]، أنه كان يوجد منهم 37 تاجرا يمارسون تجارة كبرى إلى السودان عبر طرابلس[109]. لكن رغم عدم وجود تاريخ محدد لبداية تكثف هجرة الطرابلسيين إلى تونس، فإن ما تؤكده المصادر التاريخية هو أن تكثف الهجرة كانت نتيجة لفساد الحكم في الأسرة القره مالية وكان ذلك منذ بداية حكم هذه الأسرة في مطلع القرن الثامن عشر بسبب الصراع على الحكم وإثقال كاهل الأهالي بالضرائب الاستثنائية مما أدى إلى إهمال النشاط الزراعي والتجاري وقيام العديد من الانتفاضات والقلاقل أربكت مصالح البلاد وألحقت بالسكان أضرارا فادحة مما أدى إلى نزوح الكثير من الأهالي إلى البلاد التونسية وخصوصا المنتمين منهم للقبائل المسهمة في تلك الانتفاضات التي جدت بالدواخل، منها انتفاضة عبد الجليل سيف النصر التي جمعت إليها قبيلة ورفلة ببني وليد والقبائل المجاورة لها ولم تنطفئ إلا بموت ملهبها في صيف 1842. كذلك انتفاضة المنطقة الغربية (1838–1839) بقيادة غومة المحمودي رفيق سيف النصر ومسانده في المنطقة الواقعة جنوب شرق طرابلس. وقد عرف غومة بنضاله ضد سياسة الإدارة العثمانية التي تميزت بالتعسف والجور وأغرقت الأهالي بأعباء الضرائب، وقد انضمت لهذه الانتفاضة قبائل ورشفانة والعجيلات وجنزور.

كما تمرد أهالي الساحل والمنشية وأعلنوا العصيان المدني ضد الحكم القره مانلي سنة 1831. وقد انحدر أغلب الليبيين المهاجرين للبلاد التونسية خلال هذه الفترة من تلك القبائل المتمردة. ولم يكن زوال حكم الأسرة القره مانلية وعودة طرابلس إلى الدولة العثمانية منذ سنة 1835 ليحدث انفراجا في الأوضاع السيئة التي كانت تعيشها البلاد مما جعل الانتفاضات تشتعل من جديد ويتسع لهيبها ليشمل كامل مناطق إيالة طرابلس الغرب وهو ما لاحظه الرحالة الألماني هـ. بارث عندما زار طرابلس سنة 1864، وقد اضطر الأهالي للهجرة في اتجاه تونس لتأمين معيشتهم نتيجة واقع البلاد الذي أصبحت معه الحياة لا تطاق مع ارتفاع عدد الوفايات في الولاية حيث لم يتبق من سكانها إلا 30 %. غير أن تلك الهجرات لم تكن منظمة في العدد والتاريخ بل كانت في شكل مجموعات صغيرة لكنها كانت مستمرة إلى تاريخ انتصاب الحماية الفرنسية

108- الحشايشي (محمد بن عثمان)، ن.م، ص 172.

109- الحشايشي (محمد بن عثمان)، ن.م.، ص 170.

بـتونس[110]. وكـان عامـل الاسـتقرار الـسياسي وتوفر فرص العمل وخاصة في الميدان الفلاحـي في إيالـة تـونس مـن العـوامل المـشجعة التي ساعدت الليبيين على الاستقرار بالـبلاد فـضلا عما فقدته البلاد منذ سنة 1233هـ/1818م من الأيدي المنتجة بسبب وباء الطاعـون الحـاد الـذي أودى بحـياة الآلاف مـن الـسكان وتـرك آثـارا سـيئة على الحياة الاقتـصادية. ويـرجح أن مجـيء هـؤلاء الليبيين قد أسهم في تجاوز الكارثة الديمغرافية الـتي حلـت بالـبلاد وخفـف من حدة المحنة التي عاشتها الفلاحة التونسية من خلال ما وفـرته مـن أيـدي عاملـة أغلبها في الأرياف والدواخل حيث المجال الفلاحي والرعوي وهـو ما يتفق مع ما ذكره بليسيي من أن الطرابلسيين كانوا يشكلون الأغلبية من السكان العاملين في الفلاحة في منطقة مجردة فكانت منطقة الشمال التونسي أكثر مناطق الإيالة التونـسية اسـتقطابا للمهاجرين الليبيين الذين كانوا يشكلون الأغلبية من السكان العاملين في مـنطقة سهل مجردة لتوفر المياه والخصوبة والأرض. وكانت ترهونة، ورفلة، فرجان، سـيلين، أهـل القبائل التي سكنت هذه المنطقة أما عرش فرجان فكان يمتهن الرعي في المنطقة الممتدة من أوتيك وطبربة[111].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الدولة التونسية كانت تراقب عن كثب هجرة الليبيين إلى أراضـيها وحرصـت علـى تسجيلهم في دفاتر الجباية لاستخلاصهم منها حيث كان يطلـق علـيهم (طـياش الطرابلسية)، وأخضعوا لقائد واحد يسمى (قايد الطرابلسية) الذي أوكلت له مهمة تسجيلهم في دفاتر المجبى وإحصاء أملاكهم وإخضاعهم للجباية[112]. هـذا وقد سهل الواقع الروحي المشترك بين التونسيين والليبيين اختلاط هؤلاء بالمجتمع التونـسي والـتمازج معه دون معاناة ودون ما شعور بالغربة بل نبغ من هؤلاء أعلام كان لهم الدور الريادي في المجال الفكري والديني، فلا غرابة إذن أن تنتشر الطريقة السلامية مـع قدوم هؤلاء إلى تونس وتكثر زواياها في مختلف مدن وقرى الإيالة وخصوصا في الـسواحل التونـسية والـساحل الأوسط منه على وجه التحديد، حيث أكدنا أيضا حضورا مكثفا لهم وإن كنا نرجح أن ذلك الحضور أقدم تاريخا من هجرات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وهو ما يؤكده أيضا كثرة عدد أتباع الطريقة السلامية بهذه المنطقة مقارنة مـع أمـاكن أخرى من البلاد مما قد يفسر ولو نسبيا كون مقدم الطريقة السلامية بتونس

110- أبو القاسم (إبراهيم)، ن.م.، ص 35-37.

111- أبو القاسم (إبراهيم)، ن.م، ص 37-38.

112- أبو القاسم (غبراهيم)، ن.م، ص 37.

إبان انتصاب الحماية الفرنسية كان يدعى عمران بن عبد السلام الفيتوري، مما يجرنا إلى التعرف عن بعض مشايخ الطريقة السلامية بتونس.

رابعا: بعض خصائص الطريقة السلامية بتونس

المشايخ، حلقات الذكر والسند

أ. مشايخ الطريقة السلامية بتونس

فضلا عمن ترجمنا لهم من دعاة الطريقة السلامية الأوائل فإن المصادر المكتوبة والشفوية تمكننا من التعرف على أعلام آخرين من مشايخ الطريقة السلامية بتونس غير أن معلوماتنا عنهم تبقى ناقصة طالما لم يتم الشروع في القيام ببحث منهجي حول هذه المسألة اعتمادا أساسا على وثائق الأرشيف الوطن التونسي ووثائق أرشيف أملاك الدولة اللذين يعتبران معينا لا ينضب من المعلومات حول مختلف الطرق الصوفية بالبلاد التونسية في العهد الحديث. ومما توصلنا إلى التعرف عليهم -ولو جزئيا- من بين هؤلاء المشايخ، يمكن أن نذكر الآتي:

عمران بن عبد السلام الفيتوري

تفيدنا وثائق الأرشيف الوطني أن الشيخ عمران بن عبد السلام الفيتوري كان مقدما للطريقة السلامية بتونس إبان الاحتلال الفرنسي سنة 1881، ويرجح من لقبه العائلي أن أصله طرابلسي من الفواتير، وقد لعب دورا هاما في إرجاع العربان الذين قرروا إبان الاحتلال الفرار إلى طرابلس الغرب، مما يؤكد النفوذ الذي كان يتمتع به هذا الشيخ داخل البلاد التونسية وفي القطر الليبي[113].

الشيخ محمد الشريف

تؤكد وثيقة أرشيفية محررة باللغة الفرنسية تتمثل في رسالة مؤرخة في نوفمبر 1914 أرسله الشيخ محمد الشريف للمقيم العام لسلطات الاحتلال بتونس، أن الشيخ المذكور كان شيخ مشايخ الطريقة السلامية بتونس في ذلك التاريخ، وهذا يعني أن كل أتباع الطريقة السلامية بالبلاد كانوا تحت نفوذه وهو ما يجعل مواقفه من سياسات سلطات الاستعمار مهمة بالنسبة لتلك السلطات. وقد تزامنت سنة 1914 مع اندلاع

113- العجيلي (التليلي)، المصدر السابق، ص 118.

الحرب العالمية الأولى ودخول تركيا فيها إلى جانب ألمانيا، لذلك بادرت حكومة الاحتلال بنشر مواقف الولاء والتأييد لها في الحرب ضد تركيا طمعا في كسب الرأي العام الإسلامي وسعيا منها لإحداث قطيعة بينه وبين تركيا للحد من الشعور بالولاء للخلافة وخاصة للتخفيف من فاعلية فتوى شيخ الإسلام الداعية إلى إعلان الجهاد المقدس على فرنسا وحلفائها أعداء الإسلام، فكانت سلطات الاحتلال في حاجة لمواقف التأييد، خصوصا تلك الصادرة عن الطرق الصوفية ذات الوزن الديمغرافي المهم من حيث عدد الأتباع، فكان من بين مواقف التأييد التي حصلت عليها ونشرتها موقف شيخ مشايخ الطريقة السلامية بتونس الشيخ محمد الشريف. مما يطرح أكثر من سؤال حول علاقة الطريقة السلامية بتونس بالحكام وعلى وجه التحديد بسلطات الاحتلال(114).

الشيخ حمدة التركي

يعتبر هذا الشيخ التونسي أول من حفظ بحور السلامية عن الشيخ الفيتوري، وكان ذلك في حدود سنة 1900. أما الشيخ الفيتوري فقد قدم مدينة تونس في أيام علي باي الثاني (1882-1902) وأقام بزاوية سيدي عمارة بحي الحلفاوين بالعاصمة، فاتصل به عدد من التونسيين بالزاوية وأكرموه وأقبلوا على حفظ بحور الطريقة السلامية وترديدها ومن بينهم الشيخ حمدة التركي. الذي لعب دوريا رئيسا في نشر بحور السلامية حيث تتلمذ عليه عدد من محبي الطريقة الذين أصبحوا فيما بعد شيوخا للسلامية وأثروا رصيدها الغنائي كالشيخ محمد بلحسين وابنه محمود بلحسين، وحميد النابلي وابنه محمد النابلي وأخيه عثمان ومحمد بن سليمان ومحمد غبارية ومحمد بن جعفر (أبو رشيد) الذي أصبح فيما بعد شيخا للمالوف، وعثمان رابح ومحمد بن سالم وغيرهم.

كان الشيخ حمدة التركي -حسب الأستاذ فتحي زغندة- أول من تولى الإشراف على حلقة السلامية بزاوية سيدي محرز بمدينة تونس، وقد كانت تلك الحلقة تعقد في موعدها الدوري كل يوم أربعاء(115).

الشيخ محمد بلحسين

كان الشيخ محمد بلحسين من الذين تتلمذوا على الشيخ حمدة التركي، وكان أول من تولى الإشراف على حلقة السلامية بزاوية سيدي الحاج قاسم بمدينة تونس سنة

114- العجيلي (التليلي)، المرجع السابق، ص 178.

115- زغندة (فتحي)، المرجع السابق، ص 60-61.

1918. وقد كان صاحب صوت جميل، وكان يرتل القرآن وينشد القصائد[116].

الشيخ حسن عمران

يعد الشيخ حسن عمران من شيوخ السلامية الذين تألقوا في أداء البحور. وقد كان له صوت جميل وأداء موسيقي عذب. برز في أداء المالوف وبعض بحور السلامية. وكان ينتقل يوم الجمعة من زاوية إلى أخرى بالعاصمة وكان إقبال الناس عليه شديدا، وقد توفي سنة1924[117].

ب. حلقات السلامية بزوايا تونس العاصمة

انتشرت بحور السلامية –حسب الأستاذ فتحي زغندة– منذ العشرية الأولى من القرن العشرين بعدة زوايا بمدينة تونس، وقد كانت تلك البحور تردد ضمن حلقات السلامية في مواعد دورية مضبوطة؛ فيوم الثلاثاء كانت تقام حلقة للسلامية بزاوية سيدي الحاج قاسم، وقد سبق أن أول من عين على رأسها سنة 1918 هو الشيخ محمد بلحسين. أما يوم الأربعاء فتقام بزاوية سيدي محرز بن خلف، وسبق أيضا أن أول من تولى الإشراف عليها هو الشيح حمدة التركي. أما يوم الخميس فكانت تقام بأم الزوايا السلامية، وهي زاوية سيدي ابن عروس التي احتضنت السلامية وأسهمت في المحافظة على نشرها، ويذكر الأستاذ فتحي زغندة أن أول من أشرف على حلقة السلامية بهذه الزاوية هو الشيخ محمد بن جعفر ثم تلاه الشيخ محمد بن سليمان دون أن يعرفنا بهما أو يضبط تاريخ ذلك (مما يحتاج الأمر معه إلى تحقيق لأن الأستاذ ينقل شفويا عن شيوخ من مواليد بدايات القرن العشرين لا تتجاوز معلوماتهم منتصف القرن التاسع عشر، في حين سبق أن أكدنا على قدم تغلغل الطريقة السلامية وانتشارها في البلاد التونسية). أما يوم الجمعة فتنتظم حلقة السلامية بعدة زوايا بمدينة تونس وهي: زاوية سيدي شيحة بالحلفاوين، وزاوية سيدي ناجي بحي المركاض، وزاوية للة بركة ببطحاء سيدي المشرف، وزاوية سيدي عمارة بحي الحلفاوين[118]. ولنترك الشيخ محمد بن عثمان الحشايشي وهو من مشايح السلامية كما سنرى يتحدث عن ميعاد الطريقة السلامية في بداية القرن الماضي حيث يقول: « والعمل الجاري في كيفية ميعاد الشيخ

116- زغندة (فتحي)، ن.م.، ص 61.

117- زغندة (فتحي)، ن.م.،، ص 62.

118- زغندة (فتحي)، المرجع السابق، ص 61.

وأعمال الإخوان، هو أن يقف الإخوان بمكان رحب على شكل حلقة، ويبد كل واحد منهم دف كبير من الجلد ذو وترين بوسطه، ويضربون جميعا بتلك الدفوف، وكل واحد منهم يأذنه الشيخ بأن يتكلم منشدا في حق الشيخ شيئا من المدح باللسان البربري (يقصد العامي) وعلى وزن مخصوص مقفى يسمونه في حرفهم بحرا، بصوت رخيم، على أسلوب بديع، تستميل إليه النفوس، وتنشرح له الصدور، فيضربون بتلك الدفوف نقرا خفيفا، ولما يسكت المنشد هوينا، تضرب الدفوف ضربا قويا إلى أن يصير لها صوت عظيم، ومثال تلك البحور كالبحر الذي في مدح الشيخ سيدي ابن عروس، وهو يا بن عروس افزع وتعال. يا بو الصرائر وتعنى إلخ»[119].

وقد كان الناس ينتقلون من زاوية إلى أخرى لمشاهدة أعمال الطريقة السلامية وحفظ بحورها[120] التي انتشرت –حسب الأستاذ فتحي زغندة– ونحن نقول: الأرجح أنها كانت منتشرة في بقية المدن التونسية وخاصة على الساحل الشرقي للبلاد، ولا شك أن انتشار تلك البحور السلامية التي كانت تنعت بـ(البحور الطرابلسية) عن طريق الرواة يجعلها تتغير بحسب اللهجة الموسيقية التي يحذقها كل راوية[121]. وبالفعل فقد أكدت الأبحاث أن البحور التي دخلت إلى تونس كانت في البداية أشعارا بالملحون تعتمد ألحانا بسيطة باللهجة الموسيقية الطرابلسية، وقد ضاعت أصولها وعوضت في الزوايا بألحان أخرى تونسية من وضع الشيوخ[122].

هذا على مستوى شكل أداء البحور وألحانها، أما على مستوى مضمون ميعاد الطريقة السلامية الذي يمثل التراث المدائحي الخاص بهذه الطريقة فإنه يشمل أدعية ومدائح تؤدى في الزوايا المنتسبة إلى هذه الطريقة، وذلك حسب تسلسل أقرته التقاليد الموروثة وأجمع عليه الشيوخ الذين استجوبهم الأستاذ فتحي زغندة في بحثه حول «الطريقة السلامية في تونس أشعارها وألحانها». وينقسم هذا التراث إلى قسمين رئيسين:

1. قسم خال من الغناء والموسيقى ويتضمن تلاوة سورة الفاتحة من القرآن الكريم وقراءة أحد أحزاب الشيخ عبد السلام الأسمر ووظيفته.

119- الحشايشي (محمد بن عثمان)، الهدية، ص 218.

120- زغندة (فتحي)، المرجع السابق، ص 61.

121- زغندة (فتحي)، ن.م.، ص 63.

122- زغندة (فتحي)، ن.م.، ص 64.

2. قسم يؤدى غناء ويكون مرافقا أو غير مرافق بآلات الإيقاع، ويتضمن حسب الترتيب: إنشاد جانب من السلسلة الذهبية، ثم إنشاد سلسلة الفزوع، ثم ارتجال قصائد دينية، ثم إنشاد أختام سلسلة الفزوع، ثم إنشاد التصلية، ثم إنشاد مجموعة من البحور والشطحات والأختام والتهليلات[123].

إن عدد بحور السلامية وافر جدا، فهي تمثل القسم الأكثر انتشارا بالمقارنة مع أقسام التراث السلامي الأخرى (الأحزاب والأدعية والسلسلة وغيرها) [124]، لذلك فإنه من العسير حصر عدد بحور السلامية ومعرفة ما ينتسب منها فعلا إلى سيدي عبد السلام الأسمر وما هو من نظم أتباع طريقته، وقد جمع الأستاذ فتحي زغندة مدونة اقتصر فيها على نماذج من أبرز البحور التي انتشرت في البلاد التونسية على أيدي شيوخ هذه الطريقة، وهي بحور حولها إجماع على نسبتها لسيدي عبد السلام الأسمر[125]، مما يطرح قضية سند الطريقة السلامية بتونس التي يمكن أن نختم بها بحثنا.

ج. سند الطريقة السلامية بتونس

لئن كان سند الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر في طريقته المتصلة بسيدي أحمد ابن عروس من طرقه المختلفة مشهورا وموثقا في ما بين أيدينا من أدبيات الطريقة العروسية، فإننا نفتقد في تونس -على حد علمي- إلى سند تونسي موثق لهذه الطريقة يتصل بالشيخ الأسمر عدا ما توصلنا إليه في بحثنا هذا من ضبط الأسانيد التالية وفق منهج كرونولوجي[126]:

- سند الشيخ المعمر أحمد بن مدين بن شعيب بن جابر بن شعيب السقفي (التونسي الجد وجد الجد مدفنا) عن الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر. ولا نعلم من أخذ عنه من التونسيين لأن زيارته لأرض أجداده واتصاله بأهلها جعلناه من قبيل المحتمل الممكن وليس المؤكد. وقد تقدمت ترجمته.
- سند الشيخ عمر بن حجا، صاحب وخليفة الشيخ عبد السلام الأسمر، دفين بلد

123- للوقوف على تفاصيل ذلك انظر: زغندة (فتحي)، المرجع السابق، ص 83-96.

124- زغندة (فتحي)، ن.م.، ص 95.

125- زغندة (فتحي)، ن.م.، ص 95.

126- استثنينا في هذا المبحث جملة الأسانيد المنقطة التي ذكرها الأستاذ فتحي زغندة في مضان كتابه.

الدامـوس بالـساحل الأوسط التونسي، عن شيخه الأسمر، وعنه ابنه سيدي محمد بن حجـا دفـين لقاطـة مـن ساحل حامد من عمل طرابلس الغرب، وإن كان ينسب له سـند مباشـر بالإذن والتلقين عن الشيخ الأسمر تكليما له من قبره، وهذا مألوف في أدبيات الصوفية؛ وعنه الشيخ أبو راوي بن محمد بن عرفة بن عمران بن عبد السلام بـن سـليم، دفين جربة؛ وعنه صاحبه وخليفته الشيخ علي الفرجاني دفين قرية كعام بـساحل حامـد بالقطـر الليبي؛ وعنه ابنه عبد السلام، دفين شنني بقابس. وقد تقدمت أيضا ترجمة صاحب هذا السند.

- سـند الـشيخ محمـد بن عثمان الحشايشي الشريف من طريق نقيب الأشراف الحاج الـشيخ عمـر بـن شـتوان، شـيخ الطـريقة العروسـية ببـنغازي وبـرقة وسـرت. يقول الحشايشي: «بواسطته انتظمت إلى هذه الجماعة ... ثم منحني كتابيا حق ضم إخوان آخـرين إلى هـذه الطريقة، ومنح نفس هذا الحق إلى غيري» ويقصد بذلك أنه صار مقـدما للطـريقة العروسـية ولـه حـق تقديم غيره. وكان ذلك أثناء رحلته إلى البلاد الطرابلـسية سـنة 1896[127]. غـير أن الشيخ الحشايشي لم يسعفنا في مضان كتاب رحلـته بـأعلام هـذا الـسند المتصل بالشيخ سيدي عبد السلام الأسمر مما يتجه معه النظر إلى ترجمة الشيخ ابن شتوان في مضان المصادر الأخرى. كما أننا لا نعلم هل أذن الشيخ الحشايشي عندما عاد إلى بلاده غيره من التونسيين في طريق السلامية أم لم يفعل ؟ وهو أمر يحتاج إلى البحث.

- سند الشيخ إبراهيم بن محمد بن عمر بن علي بن عبد السلام بن علي الفرجاني، من طريق سلفه واحدا بعد آخر إلى جده الأكبر الشيخ علي الفرجاني؛ عن الشيخ سيدي أبـي راوي عـن الـشيح محمـد بـن حجا عن والده الشيخ عمر حجا عن سيدي عبد الـسلام الأسمـر. وهـو سـند عـال متـصل حـافظ عليه أحفاد الفرجاني الجد بحكم تولـيهم لمـشيخة زاويتهم بشنني بقابس. وقد كان الشيخ إبراهيم حيا في مطلع القرن الماضـي، ولا نعلـم مـن أخـذ عنه في ما هو موثق لدينا غير الشيخ محمد مخلوف المنـستيري الـذي سـيأتي ذكـره، رغـم أننا لا نشك أن غيره كثير خصوصا من أبناء الجـنوب التونـسي، ممـا يـتوجه معـه متابعة هذا السند الهام لمزيد فهم كيفية انتشار

127- الحشايشي (محمد بن عثمان)، الرحلة الصحراوية، ص 72.

الطريقة السلامية بالبلاد التونسية[128].

- سند الشيخ محمد بن محمد بن عمر بن سالم مخلوف الشريف المنستيري دارا ومولدا، المالكي مذهبا، الشاذلي طريقة، صاحب كتاب (مواهب الرحيم في مناقب مولانا الشيخ سيدي عبد السلام بن سليم)، من الطريق المتقدم الذكر، الشيخ إبراهيم الفرجاني الشنناوي إلى آخر السند المذكور قبل هذا، المنحصر في رواية (السلسلة) الذهبية المنسوبة للشيخ الأسمر، وهي أرجوزة في تسعة وسبعين بيتا، ألفها الشيخ سنة 979هـ/1571م عدد فيها شيوخه الذين أخذ عنهم طريق القوم. وقد ذيل الشيخ مخلوف هذه السلسلة في كتابه (مواهب الرحيم) بخمسة عشر بيتاً شعرياً فيها أسماء مشايخ سنده في رواية السلسة، فوثق بذلك هذا السند العالي جدا في البلاد التونسية[129]، غير أننا لا نعلم إن كان الشيخ مخلوف قد أذن غيره في رواية هذه السلسة أم لا، مما يتجه معه النظر أيضا في سيرة هذا الشيخ وعلاقاته بأقرانه من علماء تونس وتلاميذه، خصوصا في مدينة المنستير حيث قضى آخر أيامه إلى تاريخ وفاته سنة 1941.

خاتمة

كانت الطريقة العروسية أو السلامية و(السلايميّة) كما هي مشتهرة بتونس تعد من بين أهم الطرق الصوفية بالبلاد، وهو ما تؤكده وثائق أرشيف إدارة الحماية الفرنسية وخصوصا الوثائق الإحصائية التي يعود تاريخها إلى سنة 1925. ورغم قلة المصادر والمراجع المتعلقة بظهور وانتشار هذه الطريقة، فقد استطعنا أن نفند النتيجة التي توصل إليها الباحث فتحي زغندة صاحب الدراسة المتخصصة الوحيدة التي تصدت لهذه المسألة، والتي مفادها أن دخول السلامية إلى تونس يعود مبدؤه إلى منتصف القرن التاسع عشر، وكان ذلك عن طريق أحد مشايخها الطرابلسيين من الفواتير ممن زاروا القطر التونسي واستقروا به لمدة قصيرة بأحد زواياه المعروفة؛ فأكدنا أن ظهور وانتشار هذه الطريقة بهذا القطر يعود في الواقع إلى تاريخ أقدم من ذلك بكثير، بل إلى تاريخ متزامن أصلا مع قائم حياة بعض مشاهير أصحاب الشيخ عبد السلام الأسمر الفيتوري ممن رحل إلى الساحل التونسي وقرر الاستقرار فيه إلى تاريخ وفاته، أو ممن جاء بعده

128- مخلوف (محمد)، مواهب الرحيم، ص 68-69.

129- المصدر نفسه، ص 68-69.

مـن كـبار دعـاة هـذه الطريقة سواء من أحفاد الشيخ الأسمر نفسه كالشيخ الولي الصالح سـيدي أبـي راوي الـزليطني دفـين جزيـرة جـربة التونـسية، أو تلميذه الشيخ عبد السلام التاجوري مؤلف كتاب «فتح العليم في مناقب سيدي عبد السلام ابن سليم» (الذي حقق في الـسنوات الأخـيرة الماضـية في الجامعـة التونسية)، أو من غير أحفاد الشيخ كسيدي علـي الفرجانـي الـشنناوي وأبـنائه مـن بعـده، الـذين يعـدون -كما توصلنا إليه في هذا البحث- أهم من نشر الطريقة السلامية في منطقة الأعراض بالجنوب التونسي.

وقـد اعـتمدنا علـى مخطـوط تونـسي ذي صـبغة عـسكرية إحـصائية يعـود إلى منتـصف القـرن التاسع عشر، وكذلك على بعض وثائق الأرشيف الوطني التي تعود إلى فترة الحماية الفرنسية لنرسم خارطة أولية لانتشار زوايا الطريقة السلامية بالبلاد التونسية، وخصوصا على مستوى الشريط الساحلي وبأكثر دقة على مستوى الساحل الأوسط منه، وهي المنطقة التي اختارها سيدي عمر بن حجا خليفة الشيخ الأسمر للاستقرار فيها إلى حين وفاته حيث سيشيد له ضريح ما زال قائما إلى اليوم.

كما تمكنّا أيضا من تتبع انتشار الطريقة السلامية بتونس بداية من منتصف القرن التاسـع عـشر وذلـك انطلاقـا مـن نتائج البحث الميداني التي توصل إليها الباحث فتحي زغـندة في كتابه المذكور، وكذلك اعتمادا على وثائق أرشيفية أخرى تمكنا من الاطلاع عليها، مكنتنا من التعرف على عدد آخر من أعلام الطريقة السلامية الذين كان لهم أيضا الفـضل في انتـشار هـذه الطـريقة واشـتهار حلقاتها الصوفية التي تميزت بكثرة بحورها ولـونها الموسـيقي المتميـز الـذي فقـد أصالته الطرابلسية شيئا فشيئا ليتخذ لاحقا هويته التونسية الموافقة للذائقة الفنية لأهل القطر.

كمـا حاولـنا مـن خـلال هـذا البحث الإحاطة بظروف هجرة الليبيين إلى تونس والوقوف على بعض أسباب تلك الهجرة المكثفة، لنرجح أن هذه الظاهرة يمكن أن تعد من بين أهم العوامل المساعدة على انتشار الطريقة السلامية بتونس.

هـذا وقـد مكنتـنا المـصادر المـتاحة أيـضا مـن رصـد بعض طرق سند الطريقة السلامية بتونس، وهو سند تواصل إلى منتصف القرن العشرين.

إن النـتائج المبدئية التي توصلنا إليها تحتاج إلى التدعيم أو المراجعة، لكن ذلك يبقـى رهن الكشف عن المزيد من وثائق الأرشيف التاريخية سواء تلك التابعة لمؤسسة الأرشـيف الـوطني أو أرشـيف أمـلاك الدولـة (خصوصا وثائق الأحباس) أو الأرشيفات

الخاصة التي يحتفظ بها أصاحبها، لكن يجب أن يتم التعامل مع تلك الوثائق بطريقة منهجية علمية لا وفق طرق انتقائية وأحكام معيارية مسبقة، ونقصد بذلك على وجه التحديد الإشكال المتصل بموقف الطريقة السلامية من الاستعمار الفرنسي حيث نرى أنه يجب وضعها في إطارها الحضاري والتاريخي والعقدي الخاص بها وفق قراءة موضوعية متجردة.

هذا ومما لا شك فيه أن البحث الأثري الميداني يمكن أن يسعفنا بقائمة علمية ضافية في زوايا الطريقة السلامية بتونس يمكن أن تشمل الزوايا التي لا زالت قائمة أو تلك التي لم يعد لها وجود، كما قد يتحفنا بمعلومات تاريخية توفرها النقوش، والتي من شأنها عادة أن تثري مجال البحث. كما بات من الضروري اليوم إنجاز ببليوغرافية شاملة ومتخصصة حول الطريقة السلامية وذلك لتمكين مختلف الباحثين المتخصصين من تطوير أبحاثهم والوصول إلى نتائج أكثر عمقاً وأفضل جودة. وأخيرا فإن التعاون بين الباحثين التونسيين والليبيين في هذا المضمار بات مطلبا ملحا ستتحد معه آفاق البحث العلمي مستقبلا.

والله ولي التوفيق.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة

1. البدوي (محمد)، تراجم المبدعين في ولاية المنستير، الجزء الأول، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، 2001.
2. الحشايشي (محمد بن عثمان)،
   - الرحلة الصحراوية عبر أراضي طرابلس وبلاد التوارق، تقديم وتعليق محمد المرزوقي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1988.
   - الهدية أو الفوائد العلمية في العادات التونسية، تح الجيلاني بن الحاج يحيى، سيراس للنشر، 1994.
3. الزبيدي (مراد)، تحقيق مخطوط دار الكتب الوطنية التونسية رقم 18669 (أطلس جغرافي وإحصائي لقيادتي سوسة والمنستير خلال منتصف القرن XIX)، شهادة الدراسات المعمقة في التراث، مرقونة وموضوعة بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، I، 2004.
4. زغندة (فتحي)،
   - الطريقة السلامية في تونس أشعارها وألحانها، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 1991.
   - الإنشاد في الطريقة السلامية: قراءة موسيقية، في الحياة الثقافية، العدد 112، فيفري، 2000، ص 78-81.
5. عبد الوهاب (حسن حسني)، خلاصة تاريخ تونس، تح حمادي الساحلي، دار الجنوب للنشر، تونس، 2002.
6. العجيلي (التليلي)، الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (1881-1939)، منشورات كلية الآداب بمنوبة، تونس، 1992.
7. الفيتوري (عبد السلام الأسمر)، الوصية الصغرى ويليها الجامع، تح، علي الصولي، الدار المتوسطية للنشر، تونس، 2007.
8. أبو القاسم (إبراهيم)، الخلفيات التاريخية للهجرة الليبية إلى الإيالة التونسية خلال القرنين 18 و19، في المجلة التاريخية المغاربية، العددان 85-86، ماي 1997، ص 33- 38.
9. محفوظ (محمد)، تراجم المؤلفين التونسيين، 4 أجزاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. أولى، 1985.

10. مخلوف (محمد)،
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، د.ت.
- مواهب الرحيم في مناقب مولانا الشيخ سيدي عبد السلام بن سليم، المكتبة الثقافية، بيروت، د.ت.

11. المرابط (رياض)، مدونة مساجد جربة، المعهد الوطني للتراث، تونس، 2002.
12. المرزوقي (محمد)، قابس جنة الدنيا، مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد، 1962.
13. مفتاح (نادية)، دراسة وتحقيق كتاب فتح العليم في مناقب عبد السلام بن سليم، مرقونة وموضوعة بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس I، 2002).
14. النوري (علي)، رسالة في حكم السماع وفي وجوب كتابة المصحف بالرسم العثماني، تح محمد محفوظ دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.
15. النيال (محمد البهلي)، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، مكتبة النجاح، تونس، 1965.
16. الوزير السراج (محمد بن محمد)، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، 3 مجلدات، تح محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984، (استعملنا المجلد الثاني).